تل الفواخير

رواية

تأليف

مصطفى البلكي

طبعة ٢٠١٩

البلكي، مصطفى

تل الفواخير: رواية/مصطفى البلكي؛ - الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٨ .

١٣٢ ص, ٢٠ سم

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٣٩٩ ٧٢٢٩

١- القصص العربية القصيرة

أ- العنوان

٨١٣

تل الفواخير

رواية

تأليف

مصطفى البلكي

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٨/٢٢٨٣٢

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٧٢٢-٩

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٩

الكتاب : تل الفواخير

المؤلف : مصطفى البلكي

الغلاف : أحمد الصباغ

الناشر: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكــس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

إلى جدي والطفل الذي كان يرافقه

(١)
البوستة

وجهه أصبح صلداً، كأنه أغلق كل متاريسه بالضبة والمفتاح.

صعّب علىّ الإبحار عبر غضون وجهه، لأعرف ما يدور بداخل رأسه.

هذه هي حال جدي، منذ أن قمنا من تحت جدار النقطة، كل شيء فيه مستعصٍ علىّ.

أيكون الحزن قد حط داخله مما سمع من كلام الخطاب؟ أم أنه سيقع صريع مرض ما؟ من تلك الأمراض التي تأتى على غفلة مثل السكتة.

يقال إنها تسبق بدلالات: مثل السهوم البادي عليه الآن، والتوهان الذي يعيشه بكل معانيه .. لكن كيف؟ وهو بين الحين والآخر يرد على من يلقي عليه السلام، بالرغم من أن رده لا يزيد على كلمة واحدة، ينطق بها لسانه بتكاسل، إلا أن هذا الأمر غير مريح!

كان يوقف الواحد منهم، يستنطقه بإلقاء أسئلة، عن الصحة والحال، فإذا وجد الرد روتينيًا، كان يدعه وشأنه ويدعو له بـ «ربنا يسهلك»، أما إذا وجد بعض الخلل في الرد، فإنه يهوّن الأمور، ويعطي بعض النصائح لمواجهة أهوال الدهر والأيام، وينهي كلامه بـ «يا ما دقت ع الراس طبول».

يدور كل هذا في دماغي القلق عليه، من كمد الهم وكتمه داخله، وتحمله لوحده بدون أن يشرك أحدًا معه.

أقترب منه أكثر، أجد الحزن قد اندس بجبروته بداخله، يتربص به أو يلبد في زوايا ما من روحه ليقضي عليه، وحتى لا أدعه لعيون الناس تلتهم منه ذلك الضعف الذي لا يليق به، سألته:

- يا جد مالك؟

يسكت، ويسير، ويزيد من وضع الترابيس على وجهه، كأنه يريد أن يطمر شيئًا داخله، يعرفه هو، ويخاف أن يطّلع عليه أحد.

«يا جد أنا حمال، هات شوية من فوق كتفك، أشيل عنك، دانا واد الغالي، تكلم يا جد زيح عن قلبك يمكن ترتاح».

يركب رأسه ويزيد في صمته، وفجأة يصرخ:

- ألحقني يا ولدي.

ويقع ..

تمدد جسده وأخذ يلقف أنفاسه، وُسحب الدم من وجهه، فأصبح في صفار الكركم، وغاب البريق المخبأ في عينية، وتقلصت أمنيتي بأن أجعله يتكلم، حتى ماتت وقت أن أغمض عينيه تماما، ثم أطلق تنهيدة، وفي الحال تسارعت الأيدي القريبة منا تفعل ما

استطاعت فعله: رش الماء، وتدليك صدره، وأنا في عالم خالص، يُلجم الموقف حواسي، وأتسمر بوتد دق في مكان وقوفي، واختلط بداخلي ما حدث مع ما سوف يحدث، وما لبثتُ أن غرقت في لجة من الخوف، وسرعان ما أصبحتُ نقطة في بحر البشر الذين أحاطوا به.

ينحنى واحد من الناس المتحلقين حوله، يقرب أُذنه من صدره، ويصدر أمره:

- هاتو ريشة.

ويصرخ في الناس، يطالبهم بالابتعاد ليصل الهواء إلى جدي، وعندما يمسك بالريشة، يقربها من أنفه، يراها تهتز ببطء، فتسري على ملامحه بوادر السعادة، وتظهر لي أنا العائد من لجة الخوف ككأس مملوءة إلى نصفها، تنتظر لحظة الامتلاء لوصول يقين الحياة التي لمحها الرجل على وجه جدي، يفيض الكأس بتأكيده:

- الحاج عبد المنعم حي. والختمة الشريفة حي.

ويطلب بصلة، تناوله امرأة واحدة، «يدشها» تنطلق رائحتها، تزكم الأنوف، وتُجرى الدموع في العيون، يقربها من أنف جدي، بينما العيون الشاخصة مسكونة بالترقب، يبربش عينيه، وتندفع

دمعة وحيدة، فور وقوع نظره عليَّ وأنا أقف مشدودًا إلى وتدي، ابتسامته المحدودة التي ارتسمت على شفتيه، وفي تلك اللحظة كان أكثر قدرة على جذبي إليه، فأبرك بجواره، وقبل أن أصل إليه، يسبقني الجد علي البقال ، ويريح رأسه على فخذه، ويمد يده ويأخذ كوب ماء أذيب فيه السكر من نفس المرأة التي جاءت بالبصلة، يقربه من فمه، فيشيح جدي بوجهه، مباعدًا المسافة بين فمه وكوب الماء، يولد القلق على وجه الجد علي البقال..ويقول له متسائلاً:

- إيه مالك ؟ ما أنت كنت كويس.

يدفن جدي وجهه في صدر الجد علي، ويروح في نوبة بكاء متشنج، فأهرب من المشهد، تجول عيناي في المكان حتى تستقرا على مبني البوسطة، فأتذكر ما حدث وأقول لنفسي: ياه من تلك القلوب الجميلة ، لأجساد ضعيفة لا تقدر على صد هجوم مباغت، مثل الندى أطيافهم، تداعب أوراق حياتنا فتبللها، لنقول إن هناك حياة تنتظرهم، بها الكثير من الذكريات وبها الكثير من الظلال وبها الشوق حبل الود، وأشياء تربطهم بنا كثيرة، وأفضل صلة هي صلتهم بالجدران، فعليها سُطرت حياتهم وأخبارهم، من يجد الشجاعة منهم، يعترض إذا ما لمح بوادر زوالها، وجدي فعل هذا!

أعود من إبحاري تحت وطأة صوت الجد علي وهو يسألني:

- ما له؟

- أبوي بعت جواب.

- بيقول فيه إيه؟

- عاوز يهد البيت.

- قول الحكاية من الأول.

ولم ينتظر أي كلمة مني، مال ورفع جدي، ثم نظر إليَّ، وقال:

- ياللا بينا لبيتنا علشان يستريح.

عندما وصلنا لبيت الجد علي، وبعد أن نام جدي، شرعت في سرد حكاية يوم عشرين.

في صباح هذا اليوم، ينطلق صوته:

- يا واد يا صلاح.

صوته رغم العقود الثمانية مازال محتفظًا بنقائه وقوته.

أخف إليه بعدما أدخل قدميّ داخل المداس.

- صباح الخير يا جد.

يرفع عينيه عن شظية المرآة الملتصقة بالعجين على الحائط في غرفته، فيواجهني بوجهه المدور ولحيته الممتدة من الصدغ إلى الصدغ، والمنمقة رغم العمر المديد ببعض الشعيرات السوداء.

- يا للا يا ولدي.

يتكئ علىّ ونفارق عتبة الدار، نعانق معا أرض الدرب المخيم عليه هدوء صباح وليد ما زال يحبو.

في هذا اليوم له مفردات، لا يفرط ولو في مفردة بسيطة مهما كانت.

أول ما يلمح، يلمح أرضية الدرب الغارقة بمياه مدلوقة عليها، أحالتها من أرض ترابية سهل السير عليها إلى أرض زلقة تجعل الأجساد التي تطأها حذرة، مدققة في كل موضع تحط فيه.

مرّة من المرات دخلت قدمه داخل حفرة مملوءة بالماء وكاد أن يقع، فاتَّكَأَ عليَّ، وسب ولعن وقال:

- نسوان مقعداش غير للسبسبه.

بعدها أصبح على قدر ما يشوف يتحاشى الوقوع والانزلاق أثناء السير.

لا يترك شاردة ولا واردة إلا وأمعن التطلع فيها، يشعرني بأن هناك رابطًا يربطه مع بيوت الدرب، خصوصا القديمة منها،

أستشعر ذلك من نظراته إذا ما عانق رسومًا منقوشة على واجهة أحد البيوت، ينظر بتأنٍ إلى كل ضربة فرشاة، ويقف كثيرًا عند بقايا الأسماء التي لم تسقط مع ما سقط وتقشر من بياض.

وإذا ما انتهى من رحلة تطوافه يقول:

– شايف شغل زمان، الطوب الأحمر معشّق مع الأبيض كأن الواحد ضامم لصدره حته منه، فيه زيه دلوقت؟! الله يرحمك يا محمد يا بكر.

نصل لدار أُم مجاهد، يخبط بعصاه على بابها، يُفتح الباب، تطل بوجهها المكرمش الغائب عنه عصارته، ويقول لها:

النهارده يوم عشرين.

تقف واجمة للحظات، تملأ الحيرة عينيها، فالأيام لديها متشابهة، الذي تبات فيه تصبح عليه، ما عادت تعرف العد والإحصاء، بعدما تخلى عنها قدرها، فتركها عرضة للوحدة؛ عقب رحيل ولدها للحياة في القاهرة.

تومئ، وتعطينا ظهرها، وتحبو نحو قعر الدار، وتعود وبيدها «السركي» والختم وقبل أن نغادرها تقول:

– هاتلي من القبضية علبة البرشام دي.

يأخذ جدي العلبة ويدفسها في جيب سيالته، ويضربني السؤال:

- هل سيأتي اليوم الذي أراه في مثل هذا الوضع؟

ونسير، قد يروق لي لتبديد حبال الصمت الجاثمة بيننا أن أنقر بوابة رأسي بسؤال:

- عمرك كام يا جد؟

- عمري تمانين سنة.

وعندما يلوح الشارع الكبير المؤدى لسرة البلد، أقول لنفسى «ربنا يستر»

فالهدوء الراقد في الدرب يتلاشى تحت وطأة ضجيج الشارع الكبير.

أنظر لوجهه، أجده كالمتقلب على الجمر، الذي لا يهدأ له جنب، فلا هو بالمفرود ولا هو بالمنقبض، شيء آخر يفرش وينام! يظل في عالمه، وأظل أنا أراقبه، أشد ما يخيفني أن تمر عليه لحظات فتور فلا يعود لطقوسه، أشعر بأنه يتحسر على شيء، يلمسه، لكنه لا يعرف حدود وجوده، يتعلق بالآمال وبالرؤية، فيمعن في صمته، ومهما فعل أحد العابرين من أجل قطع مسيرة رحلته،

فلن يفلح، هو وحده من يملك تحديد زمن عودته، عودته دائما تبدأ بأن يميل عليَّ ويقول:

– زمان الناس ضحكت عليَّ لما جيت لأرض الخُرَج ..وسبحان من له الدوام .. كل اللي شايفه بعينك من بيوت بنوها على حسي.

يقول تلك الكلمات ويعود لصمته ويكتفي بملاحقة البيوت الجديدة. وأشد ما يقلقه أن يجد الملابس الداخلية الخاصة بالنساء، معلقه في البلكونات.

أتركه في تأملاته، وترتعش أمامي كلمات كنت قد قرأتها في كراسة ابنك عبد الرحيم: أول من سكن أرض الخُرَج[1] عبد المنعم الفخراني، حينما فارق تل الفواخير وحط مع زوجته، وحمارته، وسط دغل نخيل سيد الكاشف.

يظل هكذا إلى أن يلمحك جالسًا أسفل تندة دكانك، على الدكة التي سند الباب، يبتسم لك، ويجلس بجوارك، تتشكل الكلمات بينكما، قد تدور حول العيال وأحوالهم، أو عن أيام زمان، رحلة إذا ما دخلها، سيوغل ولن يعود إلا تحت وطأة مغادرتك له تلبية لحاجة زبون جاء يطلبها، فتتبعث من عينيه بقايا الحكاية، وأظل أنا أشرق وأغرب في انتظار عودتك ليعود ويكمل، كي يتخلص من صمته.

١ أرض ملك الدولة يدفع نظير الانتفاع بها المال

جلسات لا يعرف الفتور إليها طريقًا، فقط إذا ما حميت الشمس، يتركك ويعود إليك في المغربية، فتواصلان ما انقطع من حديث حول السيجة، أو بالاستماع للراديو.

بعد العشاء أحضر إليه فينهرني قائلاً:

- تأخرت يا ابن الكلب كان وراك الديوان.

ويمد عكازه، يريد التقاط رجلي، أنفلت منه بحكم العادة برشاقة، يساعدني على ذلك جسدي الممشوق.

ومنذ ساعة فارقناك، بعد جلسة فتح معك فيها غرفة من غرف ذكرياته، تحدث عن أيام النزاعات التي كانت تنشب بين أهل البلد بسبب الكسل الذي كان يسكن أبدانهم في وقت الدميرة[٢]، وعندما طلبت من الله ألا يرجعها تلك الأيام، ثار في وجهك، رأيته يدافع عن جزء يملكه، وأخبرك أن تلك الأيام كان لها رائحة، وكان الحب يسكنها، لم ترد عليه، فقام، وتحركنا، وعندما وصلنا إلى البوستة، وقف أمام شباكها، عابث الوكيل ببعض الكلمات، أصر الوكيل ألا يعطيه معاش السادات الخاص بأم مجاهد معللاً ذلك بأنه قد يكون عمرها غافلها، وبذلك يقع تحت مطرقة القانون، وينال من جراء ذلك الجزاء: بنقله إلى بلد بعيد أو خصمًا من راتبه.

ابتسم جدي من كلامه، وأخرج الختم من جيب السيالة، بلله بمداد الختامة، وقال له:

٢ موسم فيضان النيل

- هات يا راجل دول عشرين جنيه عمي.

لاَنَ وجه الوكيل، ومد الكشف له، وأشار أمام الاسم، فوضع جدي الختم في الخانة المخصصة له.

وأعطاه الوكيل معاش أُم مجاهد ومعاشه هو، ولم ينس أن يقول له:

- كل شهر وأنت طيب يا حاج.

هز جدي رأسه ولم يتكلم، فقط أفرج عن ابتسامة صغيرة بها الكثير من الحزن، كثيرًا ما فسرتها على أنها نوع من الاستهزاء بالقادم، فهو دائم القول بأنه ينتظر الموت ليستريح، وليلحق بجدتي حليمة.

وقبل أن نغادر الشباك، استوقفنا صوت شكري، موزع الخطابات، وقفنا حتى خرج لنا بعوده المعصعص ورأسه المنبعج المستقر فوقه طاقية مخرمة، يستقر تحتها وجهه المسحوب، بادره جدي قائلاً:

- في إيه يا أبو راسين.

تصنع الغضب للحظات وسرعان ما عاد إلى طبيعته، وفتح فمه، فبانت أسنانه وكأنها أشجار سنط متناثرة خارج حدود العمار، قائلاً:

- ليك جواب يا حج.

بعينه السليمة ـ فالثانية كريمة كما تعلم ـ فر الخطابات، وسحب الخطاب الخاص بجدي، وناوله إياه، قبله، وقال لي:

- جواب من أبوك يا ولدي، ربنا يرجعه بالسلامة لو ليه عمر مش هخليه يسافر تاني كفايه غربة، لازم يقعد هنا، ويمد أيده في أيد عمر زوج عمتك، ويرجعوا التل زي ما كان.

ودسه في جيب السيالة، وتحركنا من أمام البوستة.

فرحه بالخطاب القادم من بلاد بره لا يوصف، دائما تتورد وجنتاه، ويبرق في عينيه ما يشبه الأمل في الغد القادم، الذي كثيرًا ما أعلن عنه:

- نفسي أشوف دخان الفاخورة.

أمنية تلبد داخله، لا يمل من ترديدها، حتى أنه كلما شاف ثلاجة تدخل البلد محمولة فوق سيارة ربع نقل، يترحم على الأيام، والشرب من ماء البُرم.

ظل ساكنًا وظلال الفرحة تحط على غضون وجهه، حتى أوصلتنا خطواتنا إلي جدار نقطة الشرطة، جلسنا تحته، سمعت أثناء جلوسه طقطقة عظامه، وعندما استراح أخرج الخطاب، أخذته منه وفضضته، وبدأت القراءة:

«والدي الغالي ...

من بلاد الناس أهديك كثير السلامات والأشواق، أنا بحمد الله وشكره في أحسن حال، وأتم صحة وعافية، لا ينقصني إلا رؤياك وكلامك الحلو والقعاد تحت شجرة «ذقن الباشا»[٣].

والدي العزيز.

بلغ سلامي إلى عمي علي وابنه عبد الرحيم وسلامي إلى أختي نوارة وزوجها وسلامي إلى ولدي صلاح وأمه، وإلى كل من يسأل عني من أهل البلد.

ملحوظة :

سوف أرسل لك مبلغًا من المال من أجل هدم البيت وبناء واحد جديد من الأسمنت والحديد المسلح زي بقية الخلق .. انتظر مني الحوالة ..

ابنك الوفي

محمد

«السعودية ـ الدمام»

---

٣ شجرة اللبخ

الكلمات الأخيرة، جعلت وجهه يتحول إلى كتلة من لهب، كالمطروح فوق الشوك فلا هو بقادر أن يمد يده وينزع الشوك، ولا هو بقادر أن يفك العناق المطبق بين شفتيه، ليتكلم، ويقول أي شيء، ليزيل غُشم الكلمات التي سمعها..فقط قال:

-الكلام الاخرانى مكتوب في الجواب.

رددت:

-أيوه يا جد.

ألقم شفته السفلي بين أسنانه وهز رأسه، وعندما أردت أن أعاونه في القيام، أزاح يدى واستند إلى الجدار، وقام وأخذ يردد:

- يا عمر ليه ترحل، ولسه جوانا أنفاس، ياعمر يكفيك كلام العزل أن العيال راحت وسكنت بلاد الناس.

وسرنا حتى وقع .

●●●

(٢)
تل الفواخير

لطمت أمي خدودها فاحمرّت، وشقت مقدمة جلبابها، فبرز طوق القميص الأحمر، فشعرتُ بثقل المصيبة عليها، فالذي حدث خليق بفصل المرء عن واقعه حتى لو كان أكثرنا عقلاً، وأمي لأنها عاقلة، تفحصتْ هيئتها بسرعة، فدخلتْ وغيرتْ ملابسها وخرجتْ وهي ترتدي عباءة سوداء، رأتني أمامها فسألتني:

- طيب أقول إيه لمحمد لما ييجي؟

وهزتني:

- أقوله أبوك تاه.

وأطلقت صرخة قوية، على الفور امتلأت الدار بالنساء المحتشمات بالسواد، كأن غيابه وعودتي بعد أن بحثت عنه دليلاً على هلاكه أو أن مكروها قد لحق به.

فعندما طالت غيبته، قالت لي أمي:

- قلبي واكلني على جدك، روح هاته، أحسن المغربية داخلة، وربنا يسامح أبوك، هو السبب في كل ده.

خرجتُ، عانقت قدماي كل مكان، من المحتمل أن يحط فيه، في سكتي، قابلت عمر زوج عمتي فأخبرته، فلكز حمارته، وقفل عائدًا إلى العزبة، أدركت أنه عاد ليخبر عمتي.

مـع انتشـار الخبـر، هـرع بعـض أبنـاء العمومـة، وكل مـن يأتـي، يجلـس تحـت الشـجرة ويستفسـر .. فأعـود وأقـص حكايـة يـوم عشـرين.

●●●

أقبلت عمتي، تتعثر خلف زوجها، وقبل أن تدخل الدار، مالت إلى البقعة المجاورة لطلمبة رفع المياه، كبشت حفان الطين، وحنت رأسها، ولطخت وجهها، وصوتها يردد:

- آه يا بوي .. وين رحت؟

شـدها زوجهـا، ودفـع بهـا لجـوف الـدار، وانضـم إلينـا تحـت الشـجرة.

الغـم بـاد علـى الوجـوه، أرّقهـم غيـاب الجـد، فحضـروا، وهـم علـى جمـر الحيـرة يتمرغـون.

- لازم نتصرف قبل فوات الأوان.

هكذا بدأ عمر حديثه ليوقظ العقول، فتزيح وخم السكوت، وُتنحي كل ما يعيق التفكير.

ويكمل:

- نبحث عنه عند أبناء العمومة.

علي الفور يردد الكل سؤالاً: أين هم أبناء العمومة؟

يوضح أحد الحضور أن أبناء العمومة، كحبات السمسم المبدورة في رمال صفراء، ولو فرض وتم الإمساك بهذا الخيط، فسوف تتآكل الأيام، ولن تؤدي إلى شيء، وحتي إن بدأت الرحلة، فمن يضمن أن الفتور لن يعرف الطريق إلى الأقدام الضاربة في العزب البعيدة.

تحت واقعية الكلمات التي قيلت، انطفأ احتمال عمر، مما جعل هدوءًا سادرًا يسود المكان، قلت ربما يكون كلحظة تدبر، وإعادة تفكير، وترتيب أوراق.

وصدق حدسي، سرعان ما لحظات المخاض ببنات أفكارهم:

- نبحث عنه في المستشفيات.

- وليه ميكنش راح لأم شوق في سوق البهائم.

- نطلع راجل يطوف البلد والعزب اللي في ريحنا يقول: راجل تايه يا أولاد الحلال.

تنتهي الاحتمالات، فور وصول الشمس إلى مغطسها، فأوقن أن تلك الحلقة في طريقها إلى التصدع.

ينصرف المجتمعون واحدًا وراء الآخر، ومن يقوم منهم، لا يقدر أن يواجهني بعينه.

وبقي معي الجد علي.

اقترب مني، ربت على ظهري، وقال:

- جدك عايش.

تعلقت عيناي بوجهه وقلت:

- صحيح ؟

- قلبي بيقول كده.

تغلبني دموعي، لا أقدر على مقاومتها، فتعلو نهنهاتي، أدفن وجهي في صدره ، يبقيني للحظات، ثم يبعدني، ويثبت وجهي بين راحتيّ يديه ويقول:

- من الفجرية أكون عندك، والصباح رباح، والصبح يا ولدي ليه عنين، وتبات نار تصبح رماد، ليها رب يعدلها.

ويقوم.

●●●

صفصف المكان عليَّ، وانفض المولد، وكأن كل من جاء، جاء لكي يُري وجه ويذهب.

كل ما أحمل همه وجد في سؤال.. كيف أواجه أمي وعمتي؟

ماذا أقول لهما؟

رأيت أنه حان الوقت لأعتق نفسي من كل الاحتمالات التي قيلت، كوسيلة، وبداية لتحرير العقل من الكلام الفارغ الذي تردد في جنبات الفسحاية تحت الشجرة، فكل ما حدث كان فض مجالس، الكل فتح مغاليق نفسه، وراح يورد احتمالاته، وتل الفواخير لم يذكره لسان أي واحد منهم، كأنه كلمة سكنت قاموس العيب، ووضعت تحتها خطوط حمراء، يريدون إزالتها ولو بـ«مية النار»!

خوفهم من التل، هو في الحقيقة هروب من مهنتهم القديمة، قال عنهم جدي ذات يوم إنهم مثل خيالات تتراءى لك، فتحسبهم حقيقة، تنفض الغبار عن نفسها، إلا أنك ما تلبث أن تكتشف أنهم ريش، تتلاعب بهم الريح، ذات اليمين وذات الشمال، هكذا قال.

●●●

- أنا طالع التل.

تضرب أمي بيدها على صدرها، وترسم عيناها في الهواء متاهات محشور داخلها الخوف.

- في الوقت ده!.

- أيوه.

- مش كفاية جدك.

- يمكن يكون هناك.

ينزاح الخوف، تحت إلحاح الأمل، وتستوقفني وتدخل البيت، تعبر كتل السواد وتعود وبيدها كشاف يعمل بحجارة قلم، تناوله لي وتقول:

- خد ده ينور لك طريقك.

أودع الدرب والعتمة بدأت تنشر أول خيوطها، أعرف أن الطريق مقلق وطويل، وبالتالي عليٌ أن أتخفف من أسر الحكايات، ولن أجد صعوبة في ذلك، لأن الخوف نفسه من صنع الإنسان، دائما يلضم بيديه مراكبه، ويحط عليها شراعًا وحيدًا، مكتوب عليه محظور الاقتراب و التصوير، قدسية من نوع ما، تجعله يصدق صنع ما عملته يداه.

●●●

من هذه الحكايات حكاية أم جلال.

من سنوات بعيدة ، وفي قيلولة أحد الأيام، سارت أم جلال في هذا الطريق، لمحت في بطن مجرى الماء أرانبًا صغيرة، تلهو بين

الحشائش، تأكل القصباء، بش وجهها وغزاها الفرح، ظلت واقفة منتظرة اللحظة التي يتجمعون فيها في مكان واحد، ليسهل عليها صيدهم جميعا، وعندما طال انتظارها، وبدأ الملل يتسرب داخلها، قالت لنفسها أي عدد منهم يكفي، فانتهزت فرصة أن مال واحد إلى أخيه، فأطبقت عليهما، وحطتهما في حجرها وسارت، وبعد خطوات قليلة إذا بها تسمع صوتًا يأمرها:

- رجعينا مطرح ما جيبتينا.

أدارت وجهها، ماسحة المكان من حولها، تستطلع مصدره، لم تلحظ أحدًا، مالت برأسها، تبص في بطن المجرى، لفح وجهها الصهد فإذا بالصوت يعود مرة أخرى، أيقنت أنه قريب منها، فتحت حجرها، لمحت رءوسًا صغيرة معممة، ومركبة على الأرنبين، أفلتت حجرها وتسمرت مكانها مبهوتة، سرعان ما غابت عن الوعي.

عافت الناس، فاعتزلتهم، حملها ولدها ولف بها على الأضرحة والأطباء، وفي الشهر التالي، غافلها عمرها وهرب منها.

انتهت حكاية جدي، إلا أنه عقب وقال:

- ما عفريت إلا بني آدم.

إذن لا خوف، همست بها، وتلفت حولي، وجدت الهدوء يزحف على امتداد مرمى بصري، أشجار كبيرة وصغيرة، فقدت

لونها، أصبحت كأنها ظلال تطل لأعلى، وعن يميني وعن يساري تتناثر بعض أشجار السنط، أسمع خربشات من فوقها، ربما تكون لبعض الطيور التي تسكنها.

قد يتداخل صوت الطيور مع عواء الذئاب الشاردة وسط الحقول تارة، وتارة أخرى يتداخل مع نقيق الضفادع الخارج من بطن المسرب[٤] الذي كان في الماضي فحلا[٥].

من بعيد يلوح التل ساكنًا، مطلا في كبرياء كعجوز مازالت تجري في عروقها بقايا من ونس الحياة.

كل شيء هاجع، لا أثر للحياة فيه، كل شبر هنا، يلبد فيه الليل بحدته المعهودة.

في ليلة تشبه تلك الليلة، نزل الجد من فوق التل، لا تصحبه إلا الجدة أم أولاده فيما بعد، وحمارته مطيته في التنقل.

●●●

٤ مجرى لتصريف المياه
٥ مجرى مائي صغير لمد الحقل بالماء

(٣)
أرض الخرج
(حديث قديم للجد)

يـا ولـدي كل مـا يحتاجـه الإنسـان « دروة» [٦]أو شـجرة، يرتـاح تحـت ظلهـا، وأشـد مـا يؤلـم، تـرك كل هـذا.

فبعـد قعـدة العشـاء، تمـددت أجسـادنا تحـت شـجرة ذقـن الباشـا بجـوار الفاخـورة، مخـدرة مـن امتـلاء البطـون، كـوب شـاي ثقيـل أذاب جمـود العقـل، وبـدأ يرمـح في ميـدان الأحـلام، فالليلـة مباركـة، والحلـم فيهـا مبـاح، وخصوصًـا إذا كان لـدي الواحـد منـا زوجـة ورواق وبـاب يفصلـه عمـا حولـه، فلـم لا يحلـم؟.

تلـك الفسـحة لـم تـدم، فقـد بـرك جـدك الفخرانـي الكبيـر بيننـا، ودون مقدمـات قـال إن النسـوان بالرغـم مـن مفاتنهـن إلا أنهـن مثـل شـربة الملـح، وحـريم بلدنـا مثـل النـار لا يوقـف شـبوبها إلا المـاء، تأخـذ الواحـدة الواحـد منـا كعـود نعنـاع أخضـر طـري وطـازج لـم تفتـح مغاليقـه بعـد، تتلقفـه، فتأخـذ عطـره ونضارتـه ومـع انفـلات الأيـام يـدب الجفـاف في جسـد البنـي آدم، فيصبـح كزعزوعـة القصـب مركونًـا دائمـا في حمايـة جـدار أو بقعـة سـهراية، يمـر قطـار الحيـاة عليـه فيدوسـه فـلا ينـز جسـده قطـرة مـاء واحـدة. قـال مـا قـال وسـكت، حملقنـا نحـن الإخـوة في وجـوه بعضنـا البعـض إلا أن الحيـرة لـم تطـل، نفـض هـو كل الأتربـة الجاثمـة في عقولنـا، وكـف أحصنـة الفكـر التـى راحـت تركـض فـى مراحهـا الكبيـر عندمـا قـال:

---

٦ تشبه الخص

- البيت ميسعناش.

صوته بالكاد طلع، وبالكاد وصلنا خافتًا، نظرنا لبعضنا، وضرب عقولنا السؤال:

- إيه جرى؟

ولأن الشفاه المرتبكة لا تجيد لضم الكلمات، كان لا بد للحوار الداخلي أن يطل، وبالفعل حدث، وظهر لي، قلت لنفسي:

- تاريخ ومكتوب على الفخرانية، عليهم أن يعيشوه، وبنفس الكيفية، ولابد لنا أن يمر الواحد منا على نفس الطريق.

فالفخرانى الكبير وإخوته، يوم أن زعق بينهم غراب الفرقة، بنفس واحد قالوا:

- نعزل.

سحب كل واحد منهم متاعه، حط في بلدة من البلاد المتناثرة على امتداد وادي الجرف[٧] الموازى للجبل الشرقي، شيد له دارًا وفاخورة، تأخذهم الأيام والجري وراء لقمة العيش، وبين الحين والآخر، قد تمُن عليهم بلقاء عابر في أحد الأسواق، سلامات وأحضان، وجلسة قصيرة تتبع ذلك اللقاء، حول أكواب الشاي، في

٧ يقع شرق النيل في أسيوط يبدأ من صحراء المعابدة شمالا حتى عرب الهمامية جنوبا

تلك الجلسات، تضاف أسماء جديدة لأبناء رزقوا بهم، في المرات التالية، تكون الأيام قد محت تلك الأسماء، فيقول الواحد لأخيه:

- معاك إيه؟

ينضح الاستغراب على سحنة الموجة إليه السؤال، إلا أنه سرعان ما تزول الدهشة، عندما يتذكر أنه لا يذكر أسماء أبناء أخيه السائل.

وعندما يشارف عمر أحدهم على الانتهاء، أو يرقد رقدة الموت، يصل تلغراف للفخراني الكبير، يعد ركوبته، ويجمع من أبناء عمومته عددًا منهم، ويرحلون إليه، ويأتون به جثه هامدة، يدفن بجوار التل.

كل هذا دار في خلدي، قبل أن أعود من الرحلة علي وقع كلماته:

- خلاص بقيتوا رجاله، والواحد يقدر يفتح بيت واتنين، ويقني بدل الحرمة اتنين وتلاتة.

وبدأ الاستعداد لفراق البيت الكبير، وأشد ما يؤلم في ذلك القرار، أنه جاء بعيدًا عن اختيارى بل أُجبرت عليه، في وقت لم أكن مستعدًا لذلك؛ ولم أعمل حسابًا له.

هكذا وبدون سابق إنذار كان عليَّ أن أطلع للمجهول وأنا وحظي.

قمنا من قعدتنا بأدمغة مثقلة وطلع كل واحد منّا إلى رواقه ليرتب حاله.

ربك والحق مات الإحساس في جلدي وأنا طالع لجدتك حليمة في رواقنا، وهي التي سمعت صوت الحدَأ في الصباح، وهي تزعق من فوق شجرة ذقن الباشا ، ضربت على صدرها وحام الخوف وحط على وجهها وقالت « يجعله خير « .

- هنمشي من البيت.

بدون اهتمام ردت:

- يعني هنروح لبيت أبوي.

- هنعزل.

لم أستطع إكمال كلامي، درت بوجهي، حطيته على الشباك، وتأملت الفسحاية، شفت الفاخورة وهي تنفث دخانها،عانقت البرم الغاطسة أجزاء منها داخل حفر صغيرة، فرت دمعة، مسحتها بذيل الكم، وفكرت في تلك اللحظات في أمر جدتك حليمة، أدركت من سكوتها أن الموضوع يروق لها وخصوصا أنها قبل ذلك كثيرًا ما أعلنت عن أمنية أن تعيش في بيت لوحدها .

خلعت عينيّ من الوسعاية، وقلت لها:

- لمي العزال.

- اللي تشوفه .

بردها، تأكد لي أن الموضوع يروق لها، تركتها، فقامت بلم العزال، أيامها كان صندوقًا يحوي هدومها، وصرة جمعت فيها ما يخصني أنا، وحصيرة قبل أن تطويها وضعت عليها اللحاف القديم، ومقطفًا وضعت فيه عدة الشاي.

وضعتُ العزال على ظهر الحمارة، وبعدما رفعتُ جدتك عليها، نغزتها فسارت، ثم تشاغلتُ أثناء المغادرة بتطويق البيت، وخصوصا شباك الرواق الذى لم يغلق.

فور معانقتي له، عس الحزن قلبي، راح يعصره عصرًا، لا لأنه المكان الذي شهد أول ضمة لحليمة عندما أزحت الغطاء من على وجهها وقلت « بختك يا أبو بخيت « فكان نصيبى وجهًا استحلب نور القمر، وحطه على تقاطيعها، بل لأنه أول مكان يخصني، سُمح لي أن أفعل فيه ما أريد.

كلما أوغلنا في المدق تصاغر البيت حتي ظهر لي كنقطة صغيرة، في تلك اللحظات انخرطت دموعي، بكيت بكاءً يشبه بكاء طفل في يوم فطامه الأول، هوّنت عليّ جدتك بقولها:

- صاحب يا ابن آدم .. مصيرك مفارق.

في منتصف المدق وقفت عند بداية ثلاثة طرق: الأول يدور حول داير البلد، مارًا بالجبانة وشواهدها القابضة، هذا هو الطريق القبلي، أما إذا سرت في المدق، لا ألوي على شيء، سوف أصل لسرة البلد حيث مكان جدك علي وهذا هو الطريق الثاني، أما الطريق الأخير، فإنه موازٍ للمصرف، يفضي إلى أرض الخُرَج، أصعب الطرق هو، لما له من حكايات تناقلتها الأفواه عن العفاريت التي تطلع في عز الظهر الأحمر.

قبل أن أشيل قدمًا وأحط أخرى، سألتني جدتك:

- على فين العزم؟

قبل أن أرد، طوقت الطرق الثلاثة، بنظرة خاطفة ماسحة، بعدها قلت:

- بحري البلد.

بدلاً من التقدم، أمسكتْ لجام الحمارة، فوقفت، وصرختْ فيّ:

- ادفني هنا يا منعم ومتودنيش هناك.

شفتُ في تلك اللحظات الخوف يحط على وجهها، ربك والحق، مددت يديّ وأنزلتها من فوق الحمارة وزرعتها في أحضاني، لأزيح عن كاهلها غشم الخوف، وقلت لها:

- ما عفريت إلا بنى آدم.

أعدتها فوق الحمارة وسرنا إلى أن وصلنا لمشارف أرض الخرج، فشعرت جدتك بزمتة في صدرها فصرخت:

- ألحقني يا خوى[٨] نفسي إنكرش.

أيقنتُ أني في ورطة، وها هي الأزمة تباغتها ولو كنا في البيت لهان الأمر، وكانت أمي غلت لها حفان من الشيح أو ورق الجوافة، تشرب ويخر الشراب من زوايا فمها وعندما تأتي على ما في الكوب، تنام، تظل أمي بجوارها حتى تعود أنفاسها الشاردة، لتسكن فيها، هكذا قلت لنفسي وأنا أنزلها وأريحها بجوار نخلة، وجلست بجوارها مكدر النفس، غير قادر على الإمساك بخيوط التفكير، فحالتها أربكت داخلي، ماذا أفعل؟ والمكان مقطوع، ولا أثر يدل على وجود بشر فيه، كان يبدو ماسكًا بقوة على الصمت المنتشر في كل جوانبه.

وكما يقولون « العبد في التفكير والرب فى التدبير « فسبحان الله لم تمض إلا دقائق وتعود إليها أنفاسها، وتتحول الزرقة البادية على شفتيها إلى سابق عهدها، وبعد أن تمالكت قالت:

- الهوا هنا نظيف والمكان باين علية ريحه طيبة.

٨ المرأة حينما تكون راضية عن زوجها تنادية بـ أخوي وحينما تكون غير راضية تنادية بابن الناس

- يعني نقعد هنا؟

- أيوه.

- بس المكان مقطوع.

هوّنت علىّ الأمر وقالت إنه عليَّ من البدرية أن أذهب وأسأل عن المكان وصاحبه، وذكرتني بمقولة والدى:

- اللي يعرف يبني بيت . يعرف يعمره.

عندما تنفس الصباح، ركبت الحمارة، قصدت دكان جدك على أخذت منه مبلغًا من المال كنت أحتفظ به لديه، وأخذته من يده، وذهبنا إلى سيد الكاشف صاحب دغل النخيل، اشترينا منه قيراطًا، كتب جدك علي بيده حجته، وفي طريق العودة، ملنا على أبو عاجة الجمال، طلبت منه حملاً من البوص وعرق خشب لتحميل السقف عليه، وعلى العصر كان الخص قائمًا، وبنت جدتك كانونها، وعملت عليه أول كوبين شاي لى ولجدك علي.

وفي الليل فرش الكلوب الذي استلفته من جدك علي «الدروة» وما حولها قبل أن يوغل الليل بحدته، جاء والدى ولما شاف «الدروة»، شعرت من نظراته وما استقر في عينيه بسعادته، ولم ينزل من على حمارته وفارق المكان وعاد بعد وقت قصير وبيده بندقية بروحين، تركها لي وعاد للتل.

في صباح اليوم الثاني، عزقت جدتك الأرض بالفواسة، وحملت الماء من بئر مريم القديمة، البعيدة عن أرض الخرچ ، دلقت الماء على الطمي المعزوق فلان، وحملت لها أثناء نزولي من تل الفواخير غلقًا من الهزازة[٩] مزجتْ المكونات وبعد أن اختمرت شمرت جلبابها، ودسته داخل سروالها، وبدأت تأخذ حفان الطين وتليّط «الدروة».

وبعد أن جف الطين، أعطاني جدك علي برميل زيت فارغًا، دفعت به للحداد، صنع منه سدة استخدمتها كباب، شاهد جدك الكبير اكتمال الدروة، فقال:

- ربنا يملهولك خير.

●●●

٩ خليط من الطمي وروث البهائم والرماد والتبن

(٤)
بوح الأمكنة

العتمة تجثم علي أرض التل، الكشاف الذي بيدي تتعانق دوائر النور التي تقع منه مع الأرض، فتبدو كأنها بصقات صغيرة، يرمي بها، سرعان ما تمتصها فتفصح بما عليها، فتبدو أرض التل منمقة بأجزاء البرم المكسورة، قطع صغيرة متناثرة بعشوائية هنا تحت قدمي، وهناك بعيداً حيث استقرت الدائرة المضاءة وبجانبها نشارة الخشب، أغادرها ويرتفع البصر لأعلي، يرتطم بالفواخير الصامتة في مكانها باستحياء، مفتوحة الفم، كأنها تبلّغ رب السماء ظلم أصحابها لها، وترك أنفاسها محبوسة في شقوقها المتروكة بدون تليّط، يشتاق جوفها للبرم، ولعب الأطفال، والبلاليص .

آه مالي اتفحص هكذا بتأنٍ و بلا خوف!.

هل هذا معقول؟

كأن الزمان يعود أدراجه

في ليلة بعيدة، سرقني النوم، فنمت على حرام[١٠] جدي المفروش تحت الشجرة بجوار الفاخورة وهو يحكي حكاية التل.

●●●

١٠ فراش ينسج من صوف الغنم

زمان، كان في البلد شاب صورة كاملة للجنون والمجون، وكان فيه راجل نال من الحكمة الكثير، له بنت يستحي القمر لو أطل وراءها، كان يختفي، فينطلق العيال يضربون بالعصي فوق الصفائح، وأفواههم تردد:

-يا بنات الحور، سيبو القمر، القمر مخنوق ليلة ما طلع.

وإذا توارت، عاد القمر من محنته، عرف الحكيم السر فأغلق عليها باب بيته، لا يشوف الزائر لها ذيل ثوبها، وفي ضوء شمس صافيه ليوم شتوي، لمح الشاب الصبية، خطف نورها قلبه، دخل البيت من الباب فأوصده الحكيم، فدخل من الشباك، وأكل من ثمارها الناضجة رغما عنها، قالوا إنه مسخ إلى صنم، رأسه رأس إنسان، أما جسده فعلى هيئة حيوان ما.

في صباح يوم شتوي آخر، لمحها الحكيم وهي تذبل، لم يمر اليوم الثاني إلا ونودي في البلدة، بأن الجنازة موجودة داخل المسجد، بتؤدة حمل النعش، وطاف طرقات البلدة، النساء حلفن ألا يقربهن الرجال إلا بعد الحول، والبنات أضمرن لا زواج، حداداً على غياب القمر، وعدم وجود قوة كافية لمنع ما حدث.

عاد الحكيم من دفنتها، عزل نفسه عن الناس، قرأ في كتب السابقين ومما قرأ أن هناك جملة تقال في كتاب دفين لو عثر

عليه، لحقق كل أحلامه، جاب البلاد المجاورة، وبعد عناء عثر عليه عند امرأة قوادة اشترطت عليه شرطًا واحدًا لتعطيه الكتاب: أن يعاشرها ليلة واحدة، وفعل وتركها ومعه الكتاب، وضعه على حافة النهر، نظر للماء، ورمى بجسده في جوفه، غسل ماعلق به من ليلته الماضية، ثم جلس وفتح الكتاب، وبعد أن قطع شوطًا في القراءة عثر على جملته، أغلق الكتاب، وقفل عائدًا للبلدة، ليستيقظ أهلها على الحكيم وهو يحمل مقطفًا تسكنه حبات البرسيم، أخذ يجوب طرقات البلدة، لايعير الناس اهتمامًا، لسانه أسير جملة واحدة، يبدر ويقول:

- يجعل بناتك زى الأرض البور.

في اليوم التالي، تم زفاف بنات البلدة اللاتي خرطهن خراط البنات، وبعد عام لم تجيء الذرية، وطأت أقدامهن الأضرحة وذهبن إلى «الكحروتة»[11]، ووضعن الأحجبة أسفل العتبات، وبعد كل هذا لم يأت الخير، عراف البلدة قال:

- الجماع ليلة اكتمال القمر.

اندلق الماء في منتصف الليل بشوارع البلدة محدثًا جلبةعالية، على أثر الارتطام، تصاعد الغبار ممزوجًا برائحة الصابون المعطر.

---

١١ مكان يتم فيه دحرجة النساء اللاتي انقطع الطمس عنهن، ويوجد عادة بجوار ضريح أو بالقرب من المقابر

قال الشيخ الساكن أسفل مرقد القمر بجوار الشجرة الوارفة:

- لو سقط سقف البلدة لتلقفته أرجل النساء.

وتلف الأيام، وفي أعين البنات والنساء تسكن رجفة السؤال، فيطاردن الحكيم خارج حدود البلدة، يتقوقع واضعًا رأسه على حافة القبر، وتسقط دمعة يسميها « دمعة وفاء»، ويصمت، ولا يعير لهفة النساء أى أنتباه، ولا تخدشه الأسئلة ولا تحرك فيه ساكنًا، وحتى يحركوا داخله، عرض أهل البلدة علية بناتهم، نذروا له أجملهن، وقفت أمامه شملها بنظرة قوية، وهي تنضو ملابسها، أحرقتها النظرات فطارت شظايا في سماء البلدة، وعاش الناس في الكرب، ولجأ بعضهم مرة أخرى إلى مرقد القمر، قال العراف، حارسها:

- فك الطلسم بالفدو.

قاموا من عنده، وشرعوا في تنفيذ ما أشار به، فحلت البركة وعمت ونزلت هادئة في صدور النساء، وفي الليل، أرخين الستائر و اتجهن إلى خدورهن وكانت ليلة ولا ألف ليلة، تكورت فيها البطون، وبعد عام ولدن، وفي يوم السبوع حل النحس على البلدة، ومنيت بالوباء، راح يخطف الرجال دون النساء حتى لم يبق إلا الحكيم، فذهبن إليه، فلما رأى الجموع، أدرك بقرب نهايته، فطلب الموت، ومات، حملته النساء وقمن بتغسيله ودفنه بجوار الشجرة، وردموا فوق قبره ترابًا هائلاً فكان التل، أصبح مع الأيام المأوى

المناسب للطير، ولكل عابر سبيل في يوم شديد الحرارة، كان الناس يأخذون راحتهم ويرحلون، إلا الفخراني الكبير، لما جلس تحت الشجرة، مد يده وقبض على حفنة من التراب، أدرك أنه الأصلح لصناعة الفخار، وحتى يتأكد، دلق بعض الماء من قربته، وعجن التراب، وصدق حدسه، فقرر الإقامة على التل، ومع الأيام بنى فاخورته وبيته، ومن يومها والناس تطلق عليه تل الفواخير.

●●●

صحوتُ وجلستُ فوق الحِرَام، درتُ بعينيّ أتفحص المكان أيقنتُ بعد زوال سكرة النوم وخدر الحكاية أني في أرض التل، تحسستُ مكان جدي فوجدته مازال دافئًا، دليلاً على أنه غادر مكانه منذ قليل، إلا أن السكون الذي يرمي بأحماله على المكان، جعل بصري يرتد وينزرع الخوف في قلبي، فشددت البطانية على جسدي، ومرّة واحدة شعرت بسخونة بين فخذي، فمددت يدي أتحسس مصدر البلل، ذهلت، السروال كله تقريبا كان غارقًا بالماء، سرت في جسدي رجفة من أثر ذلك الاكتشاف، وجلست القرفصاء، لم يمر وقت كبير إلا وألمح شبحًا قادمًا هتفت فيه

- يا جد.

وصلني صوته، فعرفته، فهدأت أوصالي.

- مالك.. خفت؟

- عاوز أروح.

بلهجة قاطعة قال آمرًا:

- نام الصباح رباح.

رمى البطانية على جسدي، سرعان ما انتفضت واقفًا مفزوعًا من تذكري أني سأظل في التل حتى الصباح، رأى إصراري، فطال صمته، صرخت، ركلت الأرض بقدميّ، لم يزده ذلك إلا صمتًا، تماديت، رميت بجسدي على الأرض، واستمر الصراخ المحموم ومعه كنت أردد:

- عاوز أروح لأمي.

- خلاص .. خلاص .. هنروح

قام وأحضر حمارته، ركبت خلفه، لكز الحمارة، فبدأت الحركة، إلا أنه حجَم خطواتها، بضغطه بقدميه على جانبيها ليمنعها من التقميص، فعل ذلك لأنها خارجة من حالة «الشياعة»[١٢]، ظلت طوال النهار تفتح فمها لأعلى وتمط شفتيها قال جدي سنبحث لها عن «جحش طلوقة»، خرج وعاد به، أدخلها وأدخله في الحوش، أغلق الباب عليهما دارت جدتي وأمي وعمتي بالطرح أفواههن.

---

١٢ مرحلة الإخصاب

قالت جدتي:

- مسبتهاش ليه تحت الشجرة ودي بهيمة!

رد جدي:

- مش لينا بيت يا حجة، والعشرة اللي بيننا تقول نراعيها.

عبرنا المدق والجد محجم خطو الحمارة، وما إن دخلنا دنيا العمار، وشاهد البيوت المغلقة، المتسرب منها الضوء المرمي على الأرض، إلا ولكز جانبي الحمارة بقدميه، وأطلق لها العنان وقال:

- الواحد روحه ما تعرف تمزمز في النوم طول ما هو بعيد عن فرشته وعن البيت.

وزعق في الحمارة بصوت عالٍ: حا.

●●●

يطل النهار برأسه على أرض التل، يتضح كل ما فيه أكثر.

تفصح المعالم عن نفسها بلغة سهلة، لا تحتاج إلا لعين تتأمل، فالبيت القديم في أحد جوانبه منزوع منه الأبواب والشبابيك وبعض عروقه الخشبية حتى الطوب لم يسلم من السلب والنهب، فكل من أرادت أن تبني فرنًا مالت ونزعت منه الطوب، حتى مصطبة الدولاب لم تسلم هي الأخرى من السلب، عليها كان

جدي يجلس تحت تعريشة مكونة من بطانية قديمة، مفرودة فوق أربع فلقات جذوع نخل، يجلس ويديره بقدميه وبيديه يضع لمساته الأخيرة على البرم والبلاليص، وقبل أن تصله كانت قطعة طين صماء، تأخذها اليد كما تأخذ الست قطعة العجين المختمرة وتروح نشوانة تشكل منها ما تريد، هنا كانت اليد تعمل، والأفواه ترغي في أي موضوع.

قد يبدأ أحدهم:

- عملت إيه الليلة اللي عدت؟.

- كلت ونمت.

- بس ؟.

- بس.

- حرام عليك بنت الناس مظلومة معاك.

ويعلو الضحك، تكون اليد قد انتهت من عملية التشكيل، تناول القطعة للجد، فيضع لمساته عليها.

ولأن دوام الحال من المحال، مع الأيام فقد التل ضجيجه بسفر الفخرانية لبلاد بره، وهجرة بعضهم للمدن، وصفصف المكان على جدي وعمر زوج عمتي وأنا.

قال عمر ذات يوم، والدهشه تغمر وجهه من مهارة يد جدي التي لم تتأثر بحكم الأيام.

- مش أن الأوان يا عمي تعلمني القعاد على الدولاب.

كفت يدا جدي عن العمل وابتسم وقام من مكانه وقال له آمرًا:

- تعال.

لانت ملامح وجه عمر اليابسه وجلس مكانه.

لو لم ير جدي - وهو من هو - أن عمرًا تجاوز كل المراحل التى لا بد أن يمر بها الفخراني الصغير ما أجلسه مكانه.

في البداية، حمل عمر المقطف وهو صغير، وشرع يجوب طرقات البلدة ومدقاتها، يلم البعر الذى تطلقه مؤخرات الحمير والجمال، فالأولى طرية وسهلة المزج مع الطين، أما الثانية فصلبة بعض الشيء، بعد تلك المرحلة عرف أي نوع من الطمي يصلح لصناعة الفخار، تعلم أن الطين الأزرق هو الأصلح من الأصفر لأنه أكثر صلابة، وعندما خط الشنب فى وجهه شده جدي للتل وزرعه في مخمرة الطين، يمزج ما تعلم جمعه بقدميه.

لم يفقد المكان جدي بعد جلوس عمر على الدولاب، داوم على الحضور، وكان يجلس بجوار الدولاب، يأخذ حفان الطين،

يشكل منها العرائس والجمال، وإذا اشتاق لجدتي، صنع لها تمثالاً، يضعه أمامه، يكلمه، يبثه كل همومه، قلت له ذات مرة:

- كنت بتحبها يا جد.

- حليمة كانت النور يا صلاح.

- كانت تشبه مين أبوي ولا عمتي؟

- كانت تشبه عمتك، في جمالها، واستدارة وجهها، لكنها كانت أطول.

وضحك، ونفض يديه من التراب، وسرح بعينيه في الفضاء وقال:

- كانت مهرة يا واد.

وإذا مالت الشمس نحو مغطسها، تكف يد عمرعن العمل، يركب جدي حمارته، وينزل من فوق التل وعمر وأنا حوله، يحدثنا عن كل شيء، وأحب حديث إلى نفسه، حديثه عن جدتي، أخبرنا أنها لا تمت بأي صلة لعائلته، هي إحدى بنات البلد، جاءت لتشتري قدرًا، فخطفت قلبه، وظلت ترافقه في تجواله، حتى تم له ما أراد.

تخاطبني عيني: هل ما أرى عين الحقيقة؟ أم هو ضربًا من الخيال؟ تغرقني الأسئلة، فيولد صوت النفس: تعود لوحدك، تنظر في نن عين لاهية، قد تستوقفك وتسألك عنه، ستجمع كل قوتك

لتواجه من وراء قناع مصطنع، وبلسان تسكنه الرجفة متصلة مع اهتزاز يشمل كل أعصابك، ستقول:

- الغايب مصيره يعود.

تسرح، تشت، وينبت في رأسك حزن، والكل يسأل، والكلام في صدرك يدخل كطلق الرصاص:

- جدك فين؟

- معرفش.

لكي لا أقع في حيرة السؤال، قررت أن أتحاشى أثناء السير النظر في عيون الناس، بقدر ما أستطيع، وحتي وإن أرغمت على ذلك، فإن العناق لن يزيد عن لحظات، أستطلع ملامح الذي أمامي، أسحب بعدها عينيّ، وأستمر في طريقي، غايتي من ذلك تجنب السؤال الوحيد القابع داخل الأدمغة:

- لقيته؟

وها أنا أنجح، وأصل بسلام إلى دكان الجد علي الجالس تحت التندة على الدكة التي سند الباب.

- صباح الخير يا جد.

- لقيته في التل يا ولدي.

أشعر بأن الكلام ثقيل عليّ، فتدمع عيناي، يحملق هو في السماء ويردد:

- ربنا يرجعه بالسلامه.

ويهم بالوقوف، أجلسه، لأني أعرف ما يريد فعله، من احضار إفطار لي، أخبره أني مسكون بالقلق على أمي وعمتي، يرضخ تحت إلحاحي، وأتذكر ما قالته لي أمي، فأسأله:

- مش جدي جالك بعد العصر ؟

- أيوه.

- مر عليَّ قبل صفار الشمس، قعد مكانك، لم ينطق بكلمة واحدة، تركته حتى يهدأ، تشاغلت لدقائق في ترتيب الدكان وعندما خرجت وجدته يمسك رأسه بين يديه، وشكا لي من الصداع، هونت عليه الأمر وأرجعته إلى حالة الإغماء التي ألمت به قبل الظهر، لم يقنعه كلامي، وقال : خد لي الشمس، أحضرت فتيل الصوف، حزمت رأسه بالمفتاح القديم وحبكت حولها، لم أتركه إلا عندما تفصد العرق من جبهته، بعدها أخرجت أم عبد الرحيم كوبين من الشاي الثقيل، أخذت كوبي، وهو سند كوبه بجواره، لم يرتشف منه رشفة واحدة، ولما طال صمته، أحسست أن هنالك أمرًا يسيطر عليه، فالصمت ليس من طباعه، إذا جلس

بجواري كان يضاحك المارة والزبائن الذين يأتون للدكان، وإذا ما شح الناس كان يضاحك طوب الأرض، ويحفر السيجة، نلعب دورًا أو دورين، وصوته يجلجل:

- آدي كلب مات.

يستمر اللعب، لا ينقطع إلا بحضور الزبائن، يداعبونه ويداعبهم، أكثر هؤلاء إثارة للضحك أم مجاهد، كان يقول لها:

- متجوزيني يا ولية، وضل راجل ولا ضل حيطة.

تضحك وتقول:

- هو أنت فيك حاجة، ما حليمة خدت كل المية إللي جواك.

جاءت أم مجاهد، وكما جاءت ذهبت، دون أن يحرك ساكنًا.

قلت لنفسي: الحال يا عبد المنعم حال سفر.

قبل أن يقوم، دفس يده في داخل جيب السيالة، أخرج ورقة مطوية، صفراء، فردها وقال:

- اقرأ الحجة دي.

أخذتها، وما أن وقع عليها بصري، إلا وتذكرتها، فهي بقلمي الكوبية، الذي مازال مربوطًا على البنك في الدكان.

بعدما انتهيت من قراءة حجة البيت، أخذها مني وأعادها لجيبه، وقام، قلت له:

- رايح فين ؟

قال :

- رايح أخطف العصر أحسن المغربية داخلة.

وقفت أتابعه، كانت خطواته واسعة، وملأت عينيّ بطوله.

- وهو ده اللي حصل يا ولدي..

أهم بالوقوف، فيمد يده في جيبه، ويخرجها وهي قابضة على كراسة.

- دي كراسة عبد الرحيم اللى كتب فيها حكاية بيت جدك.

أتناولها منه، وأمضي.

●●●

(٥)

كراسة من ورق أصفر

(كتب فيها عبد الرحيم ابن الجد علي حكاية البيت)

الورقــة الأولـــي

في يـوم حطـت حليمـة يدهـا فـوق خدهـا، وهـي جالسـة أمـام الكانـون، المغمـورة داخلـه كنكـة الشـاي، فـوق جـذوات القوالـح. وبـدأ المـاء يغلـي، سـمعت تكتكـة وأنـا أمـام « الدروة» سـرعان ما فـار واندلق، أعادهـا صـوت الطشطشـة وانطـلاق الدخـان الرمـادي ـ النـاتج مـن انطفـاء جـذوات القوالـح ـ مـن شـرودها.

اقتربتُ منها وقلت لها متسائلاً:

– مالك؟

سـكتت، ولـم تـرد، وإذا بالوجـه المـدور الـذي يشـغي بالحيويـة يربـد، ويتحـول إلـى صفحـة غارقـة في بحـر مـن الحـزن، صدمـت مـن المشـهد، هززتهـا، ترجـرج جسـدها، وشـعرت بهـا بـين يـديّ كقطعـة قمـاش.

وبـدأت تبكـي، قلـت لنفسـي، مـاذا تريديـن يـا حليمـة؟ سـكوتك طـال، وحبالـه تبـدو بـلا نهايـة، تكلمـي، فالجمـر المطفـي في الكانـون، يشـتعل داخلـي، جاعـلاً الميـاه الفائـرة المدلوقـة تتدفـق مـع الدمـاء الجاريـة في عروقـي، تصـل لدماغـي، فتثقبـه.. تكلمـي.

– ما لك ؟

– عاوزه بيت من الطوب الأحمر زى بقيت الخلق.

الورقـــة الثـــانيـــة

مـن النجمـة، تقـوم حليمـة كالنحلـة تـدور، أولاً تطيـر إلـى نخلـة واقعـة في نهايـة القيـراط، تقرفـص خلفهـا تقضـي حاجتهـا، يكـون النـور قـد شـق، أجدهـا جالسـة أمـام الكانـون، تعـد الإفطـار، الـذي لا يتجـاوز كـوب شـاي وبعـض الكعـك الصعيـدي.

بعـد ذلـك أتركهـا وأصعـد التـل، تقـوم فتملأ طسـتًا كبيـرًا بالطمي المعـزوق مـن أمـام «الـدروة»، وتقـف تنتظـر أحـد المـارة، يعاونهـا بعدمـا تصحـح وضـع الحويـة[١٣] علـى رأسـها، وتأخـذ طريقهـا إلـى المـدق ثـم إلـى التـل، أنـزل عنهـا الطسـت، فتلقـف الكـوز مـن فـوق الزيـر النائـم تحـت الشـجرة، وتشـرب، يقـول لهـا الفخرانـي الكبيـر:

- خشي البيت ريحي جتتك.

تدخل، ويخاطبني وهو فرح:

- مرتك بت ناس، تستاهل تسكن في سراية.

تستريح مـن المشـوار، ثـم تمـلأ الطسـت بمخلفـات الحريـق الناتـج مـن الفواخيـر، وتعود.

١٣

أولاد العم، يرونها، وخصوصا والد عمر، كان يقول:

- يحمي المال لصاحبه.

أحمر له عيني، فيصحح كلامه:

- ده مش حسد يا واد عمي، ده إعجاااب.

مع الأيام تكوّن تل من الحمرة أمام «الدروة» وتل من الطمي فوق التل،

زارني علي والدك، وعندما رأى تل مخلفات الحريق قال:

- مش عارف العافية بتاجي لمرتك منين؟

قلت لـه:

- حلاوة روح.

●●●

الـورقـة الثـالثـــة

عندمـا ضـاق المطـرح بالطمـي، كفـت حليمـة عـن حملـه مـن أرض الخـرج.

فججـتُ الطمـي، وأخـذتُ أحمـل المـاء مـن بئـر التـل بشـيالة مـن الخشـب، تتمـدد فـوق كتفـيّ، تنتهـي عـن يميني بصفيحـة وعـن يسـاري بصفيحـة أخـرى، وعندمـا لاَنَ الطمـي، دسسـت يـديّ فيـه، أخـذتُ أضربـه وأخلطـه «بالهـزازة» حتـى تماسـك قوامـه وامتزجـت المكونـات بعضهـا ببعـض.

أثنـاء ذلـك قـد يعبرنـي واحـد مـن أبنـاء العمومـة، يقتـرب منـي ويرمـي السـلام، ويشـلح جلبابـه وينـزل بجـواري في مخمـرة الطـين، يفعـل مـا أفعلـه،

حتـي إذا مـا زامـت شـمس النهـار، وضربـت ظهـري بسـياطها، أتـرك المخمـرة، وأمـدد جسـدي تحـت الشـجرة.

وفي المـرة التاليـة لعمليـة الخلـط، كُشـطت يـدي، سـحبتها فـإذا بزبـوز دم يندفـع، ارتجفـت، ومـددت يـدي السـليمة لأتحسـس المـكان وأبحـث عـن السـبب، فخرجـت وهـي قابضـة علـى شـظية مـن الزجـاج، غمدتهـا في صفيحـة المـاء وأخرجتهـا، كانـت شـظية مـن مـرآة، مازالـت ملتصقـة بالعجـين في غرفتـي.

بعد أن شفيت يدي، أعددت فرش الطوب، بأن سويت أرضه، جعلتها ميزانًا واحدًا، وفرشتها بالتبن.

في صباح اليوم التالي لإعداد الفرش ملت على دويني أبو مرسي فداست قدماه أرض التل، وبيده قالب الطوب الخشبي، وأخذت أقطع له الطين المختمر، أفرده بجواره، يقتطع منه أجزاءً صغيرة، يمررها على التبن، ويرمي بها داخل قالب الطوب الخشبي، وبيده يضغط وبالأخرى يسحبه.

رأيتُ القالب الأول، وكذلك رأته حليمة، فضربت زغرودة قوية، ردت عليها أمي بواحدة مثلها، وبان الفرح على وجه دويني الذي راح يمعن في صنع الطوب، وكان لا يمل في ترديد طلباته، التي لم تتجاوز: علبة سجائر مكنة يوميًا، وشايًا ثقيلاً لا تنفذ منه أشعة الشمس، وأحيانا يطلب رطلاً من اللحم، يأكله بمفردها!

وعندما قاربت شمس الصيف الحارقة على الانتهاء، تحت وطأة الشتاء الداخل على الأبواب، بنيت قمينة الطوب، وأحضرت البوص الجاف، وبعض جريد النخيل، وفي ليلة بلا ريح، أطلقت النار فيها وأخذت ألقم فوهتها البوص، حتي بانت ألسنة النيران من بين الشقوق، وانشغلت حليمة بعمل الفطير من أجل عشاء من جاءوا لمساعدتي.

وعندما نضج الطوب متخذًا اللون الأحمر، سددت فوهة القمينة، ونمت بجوارها.

الورقـــة الرابعـــة

من كـلام « محمد بكر»

البيـوت في البلـد كانـت مميـزة بميـزة واحـدة، هـي الفوضـى، في كل شـيء، في الغـرف المتلاصقـة، والفسـحات الموزعـة بعشـوائية، هـذه الفوضـى جـاءت مـن تراكـم السـنين المتلاحقـة، كلمـا تـزوج واحـد مـن العيـال، أضيفـت خزانـة صغيـرة، واطئـة السـقف، بهـا كـوة واحـدة لإدخـال النـور إليهـا، أمـا مـن يفتـح الله عليـه ويمـن عليـه مـن فضلـه، يبنـي بـدلاً مـن الخزانـة رواقًـا، يطـل علـى بسـطة، تتمـدد أمـام سـلم مشـدود فـوق فلقـات النخيـل أو كتـل نـورج قـديم.

في تلـك الأيـام البعيـدة، كنـت لا أعتنـي بالتناسـق في رص الطـوب، مـا دام المطلـوب في النهايـة زنزانـة مطموسـة الملامـح، وهـذه الأقبيـة تظـل داخـل الواحـد منهـم، مهمـا شـاف مـن دور المدينـة المتناسـقة، وبغطرسـة حينمـا يتذكـر بيتـه يقـول:

- أصلي ريحها طيب.

ومن الغرائب، أنها في أوقات الدميرة، إذا ما البحر[١٤] زاد، وأخذت المياه الداكنة في وجهها كل شيء، تجد الكثير من تلك الدور تصمد أمام هجمتها!

●●●

دار وحيدة بنيتها بمزاج، وضعت فيها كل خبرات العمر التي اكتسبتها كصبي بناء في المدينة، هي دار عبد المنعم الفخراني، أيامها كانت أخباره وصلتني وخصوصا « الدروة» التي أقامها في أرض الخرج، وبعد فترة جاء إليَّ، وأخبرني أنه عزم على بناء بيت بالطوب الأحمر، كمحاولة لإرضاء نفسي ورفع أجرتي، اتكأت في جلستي فوق الدكة، وتناسيت مقولة الناس لي:

- الحكاية كلها رص طوب.

إذا ما غاليت في مطالبي، هذا التصرف أفعله من باب المحافظة على مكانتي التي لا ينازعني فيها أحد في البلد، لذلك وضعت الرتوش النهائية عندما قلت له بغطرسة:

- أشوف هفضي لك نفسي يوم ولا اتنين.

امتقع وجهه، وأخذ لونًا وجاب لونًا آخر، وكاد أن يفارقني، بعدما ألقى على سمعي:

---

١٤ وصف يطلق على نهر النيل

- يعني من قلتكم.

استشعرت من نبراته علامات الجد، فسحبت الحبل، وعدلت من قعدتي، خوفًا من ضياع لقمة العيش، وخصوصا أن الحال كانت ضنكًا، والجيوب خاوية بها أكثر من ثقب، لا يخر منها شيء.

وبصوت خفيض قلت له:

- بكرة أحود عليك، وأخطط لك الأرض بالجير، علشان تحفر الأساس.

سمع وولدت على وجهه ابتسامة بعدها قال:

- متتعبش نفسك، بكره تاجي ومعاك قدومك والخيط.

وتركني وأنصرف.

بعد أن غادرني، أمسكت بصدري مشاعر غريبة، لأول مرة أحس بها، فأنا الذي يعطي الأمر، وعلى الآخرين تنفيذه، وما عليَّ إلا أن أسمع من أفواههم:

- اللّه ينور.

أو:

- تسلم ايدك يا معلم.

يقولون ذلك كلما ارتفعت المداميك، ومع الأيام وارتفاع المبنى، ألمح علامات الإعجاب، وهي تشع من العيون محملة بعجزهم أمام ما أقوم به، كل هذا لمحته يخبو تحت إلحاح كلمات عبد المنعم لي، فهو بما قال يريد أن يسلب مني اختصاصاتي، وبعد هذا لا يبقى لي إلا رص الطوب!

خشيت على نفسي من التفكير، ونمله الذي ما أن يبدأ في التغلل حتى تكون له الغلبة، وأفقد الشعور برأسي، فأحسه ثقيلاً، ولا ينفع في إعادة المزاج إليَّ ولا كنكة شاي ثقيل.

ورأيت بدلاً من ذلك أن أقطع الشك باليقين، وبالفعل قصدت أرض الخرج بعد العصر، وجدت رجالاً يمسكون بالمعاول ويحفرون ويأخذون ناتج الحفر، ويلقون به تحت النخيل في نهاية القيراط المخطط بطريقة لم أشهد مثلها من قبل.

وسألني عبد المنعم:

- إيه رأيك؟.

التناسق الذي رأيته بين المسافة في الطول والعرض وطريقة التقسيم، ألجم لساني، ونشأ ما يشبه العناق بين شفتي، كل ما فعلته أن هززت رأسي، ولم أنبس بكلمة، وتركت أرض الخرج، وبداخلي شعور مقلق، مغزاه أن البساط سوف يسحب من تحت قدميّ، إن لم أفعل ما يبقيه، ويعيد الثقة إلى نفسي.

واستقر رأيي أن أضع كل خبرات العمر في البيت.

●●●

بالليل حاولت إراحة رأسي على الوسادة الليف، فشعرت بأن هناك شوكة مغروزة في جنبي، تململت وحاولت النوم على الجنب الثاني، إلا أن النعاس لم يجرؤ أن يدنو من أجفاني، فانقلبت ونمت على ظهري، وتعلق وجهي بالسقف، فإذا بأرض عبد المنعم المخططة بالجير والمحفور بعض منها مطبوعة عليه، لا يمنعها عن مرمى بصري أي حاجز، ولأني وحدي والإنسان لا يخجل من نفسه، مرت عيناي بتمهل على الأساس المحفور، وتذكرت ما قاله.

قال لي:

- هنا واجهة البيت.

وأكمل:

- هنا العتبة.

هززت رأسي وسرت خلفه، وراح يوضح على يمين العتبة مندرة[١٥] واسعة، وعلى يسارها غرفة أقل اتساعًا، بينهما مجاز[١٦] يؤدي إلى طرقة كبيرة في أحد جوانبها أشار قائلاً:

١٥ غرفة واسعة تستخدم لاستقبال الضيوف
١٦ طرقة تبدأ من الباب تفتح عليها الغرف أبوابها

- من هنا يبدأ السلم.

●●●

في الصباح، ركبت حمارتي، وأخذت قدومي والخيط والميزان، وجهتي أرض الخرج، هناك وجدت كل شيء في انتظاري، الطوب مبعثر بجوار الأساس، والطين جاهز تم مزجه بالتبن، أمسكت بالخيط وشددته، وقبل أن أضع الطوبة الأولى، في المدماك الأول، إذا بعبد المنعم يقول لي:

- سمي.

فعلت، وانطلق دولاب العمل، وبدأ المدماك الأول يظهر، يد تناولني، وأخرى تفرد الطين أمامي، وأنا أثبت بقدومي القوالب، حتى وصلت لمكان عتبة البيت، أحضرت حليمة صحنًا به ملح جبلي وعيش ناشف وحجاب، تناولته منها، ودلقته بجوار طوب العتبة، أثناء إرجاعي الصحن لها، مدت يدها داخل عبها، وأخرجت ورقة مالية مطوية، ودستها في يدي، قبلتها منها، وقلت:

- يجعلها عتبة خير عليكم.

الغريب في الأمر أن الوجوه التي كانت تلازمني في كل يوم في العمل، يفقدها المكان في اليوم التالي، ويحل محلهم وجوه جديدة، يأتون في الصباح وفي أيديهم أكياس مملوءة بالسكر أو الفاكهة وأحيانا ورقة لحمة.

سألت عبد المنعم عنهم فأخبرني أنهم أبناء عمومته.

شهر بأكمله، حتي وصلنا إلى الواجهة، عندها قلت له:

-عاوزين فلاق نخيل لعقد السقف.

سكت بعض الوقت وقال:

- مش هعقد البيت إلا بالكتل.

وأحضرها...

●●●

الورقة الخامسة
من كلام أم شوق..

جدك عاش عمره ينظر للغد القادم، الذي كان يسابقه بخطوات، دائما تجده راسمًا ملامح الحدة على وجهه.

قلت له ذات يوم:

- ما تفردها يا خوي.

قال لي إن العمل في تل الفواخير لا يعطي فسحة للقلب ليغيب عن الواقع، كل شيء بحساب، والحسابات قد تداخلت، وأكثر من ذلك تشعبت، لعدة اتجاهات، الفواخير وتدبير مصاريفها، والبيت الجديد وتكاليف بنائه، هذا هو جدك، لو عاش يومًا بدون هموم يكون واحدًا آخر غير عبد المنعم الفخراني الذي عرفته شابة، تحلو في عيون الرجال، فيظنونها فريسة سهلة، مات زوجي، تاركًا لي ابنتي شوق قطعة لحم في بطني، بلا سند ولا معين إلا الطبلية التي أحطها أمام الدار ليلة الثلاثاء، التي تسبق يوم السوق، الذى تقام شوادره في ميدان البدري[١٧]، وغرزتى مثلها مثل الكثير من الغرز تقام لليلة واحدة.

١٧ ميدان في مدينة أسيوط القديمة

ودونًا عن باقى الغرز، جذبت غرزتي الفخرانية إليها، تجدهم متحلقين حول الطبلية، المرصوص عليها البراد الفائح منه رائحة الشاي وآنية من الزجاج والزنك، وبعض حجارة المعسل وجوزة وحيدة بغابة، وبالقرب من الطبلية، كانت بضاعة جدك مستقرة، تستولي على عيون المارة، يميلون دون إرادتهم، تمتد أيديهم يقلبون، وكل يد لا تخرج خاوية، فإذا أقبل الليل، أصبح الميدان يشغي بالباعة والرواد، ورويدًا رويدًا، يبدأ النعاس يتسرب إلى العيون فتثقل، وكل من يختمر داخله النوم يقوم، حتى يصفصف المكان على جدك وعليَّ، وشوق نائمة فوق فخذيّ.

قلت له ذات يوم:

- متنام هنا يا خوي.

رد وقال إنه لو غير نومته فقد يعاف جنبه أرض «الدروة»، وضحك وقبل أن يقوم قال:

- يا أم شوق الإنسان إيه غير مكان وأنفاس تترد فيه.

يوم السوق تجده قد رسم الابتسامة كنثار ضوء حط على حائط عريان بلا مصيص، يبيع وفي نهاية اليوم يدس في يد شوق ما فيه القسمة، لايهمه كم كسب، حتى ولو فرض وشحّت الأيدي التي تمتد لبضاعته، كانت ابتسامته لا تفارقه، رغم الحدة البادية على وجهه.

سألته عن ذلك فقال:

- القلب زي بطارية الشحن، لو ترك ملّح وداب.

●●●

شايف العمارة اللي تحتها الحاتي، زمان كان بيت لوحدة ست اسمها وجنات، وهي فعلاً كانت تملك جسدًا أشعل فيه الجمال نيران الغواية، فإذا ما حطت عينها علي رجل، فإنها تظل خلفه بالحنجل والمنجل إلى أن توقعه في شباكها، فتسلب منه صحته قبل فلوسه، بعدها ترمي به لعرض الشارع والمفضوحة كانت تلبس العباءة على اللحم وشالت من فوق وجهها متاريسه، فأصبح كل شيء فيه مباحًا!

عندما شافت جدك، حطت عينها عليه، أخذتها ضخامة جسده، فبدأت تلف وتدور حوله، تتفنن في الطريقة التي بها تجر الكلام معه، مرّة تأتي إليه بحجة أنها تريد برمة، تقلب بيدها بينما تحط عينيها على جدك، ومرّة تأتي تأخذ قلة، تنحني فينزاح طوق العباءة، فيطل نهداها، وبعينيها تلمح جدك وهو يشيح بوجهه بعيدًا عنها، ويستعيذ من الشيطان الرجيم، إلاّ أنها بمكرها استطاعت أن توقعه، وجدك بسلامة نية انساق خلفها، فقد جاءت تريد عروسة من الفخار ساعتها كان جدك يطلب مني أن أبحث له عن كتل من الخشب من أجل سقف بيته الجديد، الملعونه رمت ما في يدها، وقالت له:

– أنا عندي كتل مفيش زيها.

وبسرعة قبضت على يده وأدخلته بيتها.

لم يمر وقت طويل إلا وأجده يخرج، وقد امتقع وجهه وفمه يتمتم:

– أعوذ بالله من غضب الله.

استفسرت منه، أخبرنى أن الملعونة ما أن دخل، حتى أغلقت الباب، ونزعت العباءة فأصبحت عريانة ملط، وسكت ولم يكمل، لكنه بعد أن استعاد أنفاسه، قال:

– حسيت إنها كلبه بتنبح.

– يعني عجبتك؟

ضحك وقال:

– العروق شديدة، تستحمل دور ودورين كمان.

وتمر الأيام، وتنفجر أنبوبة الغاز في البيت، وتموت، ويباع البيت، ويتم هدمه، ويأتي جدك، ويلمح الكتل وهي مكومة، فيشتريها ويعقد بها البيت.

●●●

الورقة السادسة
شهادة والدي علي البقال

لم يكن أمام عبد المنعم إلا أن يجعل بيته أفضل بيت، لذلك لم يبخل عليه في أي شيء، وبعد أن سقفه، شكت حليمة من مشوارها لبئر مريم، وجاء إليَّ وأخبرني أنه يريد أن يشتري طلمبة رفع مياه إنجليزية، أخبرته بأنها غالية، جلس بعدها وهو صامت، وغادرني وهو أكثر إصرارًا على شراء الطلمبة، وظل ساهرًا كما أخبرني، ولم يخبر حليمة بما يفكر فيه، وعندما لمحت الهم يركبه، سألته، ففتح قلبه لها يحدوه الأمل في أن تصبر معه حتى يحقق حلمه، وفي صباح اليوم الثالث الذي حدثها فيه، وضعت في حجره صرة، وقالت له:

– ده دهبي، خده وكمل البيت زي ما أنت عاوز.

أمسك بالصرة في يده، ونظر إليها، وقال لها:

– وهتفضلي من غير دهب؟

أشارت إلى قرطها، والحجل في قدمها وقالت:

– دول فيهم البركة.

وما هي إلا أيام وأخضر الطلمبة، وتم حفر حفرة، نزل فيها الصنايعي، وأصبحت تلك الحفرة فرجة البلد، فهي المرة الأولى التي يتم فيها دق طلمبة إنجليزية الصنع، وبعد أن انتهى الرجل، وأخرجت الماء، أخذ عبد المنعم منها ملء ماعون، وطلع به للتل، ولما عاد قال لي:

- كان لازم أبوي يكون أول واحد يشرب منها.

●●●

(٦)
أردية الكآبة

يوم وليلة وظل جدي بعيد عن البيت، خلق غيابه حالة من التضامن بين عوالمه المتسربلة بأردية الصمت، الذى شاف في جنباته مرتعًا خصبًا يتنطط فيه، خصوصا بعد خلوه من النساء المتشحات بالسواد، لا يحوشه حتى الدمعة الفارة باستمرار والتي لا تفارق خد عمتي، ولا حتى نظرات أمي المسكينة، الواضعة يدها على خدها، تنظر إلى لا شيء، وإن كنت ألمح معاني اللوم، توجهها لي كلما وقع بصرها عليَّ، رغم الحزن و نكهته، إلا أن رائحته تكون أقوى، تتسلل من مكان ما، أكون فيه، حط فيه قدمه.

تشعر بها عمتي فتقول.

- جدك راح يا صلاح، يهون عليك يا واد أخوي، نسيت كتفه اللي ياما شالك وأنت من فوقه تقول: حا .. شي .. هش .. وهو يا حبة عيني يضحك، كان سعيد بيك يا واد، جدك فين يا صلاح؟

كلماتها تخرق دماغي، وتجري مع الدماء، فيقف شعر رأسي، وتسري قشعريرة خلال أوصالي، سرعان ما تتحول الدماء إلى حديد مصهور في مرجل، تندفع إلى رأسي مرّة ثانية، تأثيرها يفوق تأثير الشمس القداحة.

هي عمتي وشقيقة أبي.

كلما جاءت من العزبة المجاورة، وقبل أن ينشف عرقها تدخل غرفة جدي، تجلس أمام صورة جدتي حليمة، الكل يعرفها، فتتركها أمي، حتى تأخذ كفايتها وتخرج.

في تلك الغرفة لها طقوس، تحافظ على فعلها، فبعدما تفرغ من معانقة صورة جدتي، تتجه إلى الصندوق الموضوع في أحد أركان الغرفة، تفتحه، تخرج منه هدوم جدتي، تفردها، وتطويها، هدوم قديمة في طراز حياكتها، لها كرانيش، وسفرة واسعة عند الصدر، حتى الأكمام واسعة، ولها ذيل طويل، ومن الأمام مرتفعة قليلاً، ثم تخرج بعد ذلك بعض العقود المصنوعة من الخرز الملون، وفردة حلق واحدة، تنظر في كل هذه الأشياء، والدموع تسقط من عينيها، وعندما تهدأ، تخرج من عبها زجاجة عطر، ترشها على محتويات الصندوق، وعندما تطلع تقول لها أمي:

- تعيشي وتفتكري.

●●●

في هذه الغرفة التي على يسار المجاز، وضع الطست تحت المغسلة، قامت أم مجاهد بتغسيل جدتي حليمة، وعندما حمل النعش فوق الأكتاف، وقبل أن يغادر عتبة الباب، وقف متردداً بعض الوقت، حيرته لم تستمر كثيرًا، فقد اندفع النعش بحامليه

لجوف الدار، امتد الهرج والصخب خارج الدار وداخلها، وتوترت الدماء الجارية تحت جلودهم المكوية من نار الفواخير بالنسبة للفخرانية، وبالنسبة للفلاحين من صهد الشمس القداحة في الحقول.

وفي فسحاية السلم أخذ النعش يلف ويدور، والأفواه تقول:

- الجمل هام للنبي.

جدي أخذته رجفة الغفلة، لأن هذا لم يكن في الحسبان، ظل للحظات هكذا، إلا أنه نجح ولملم نفسه الشاردة، واقترب من النعش وهمس:

- يا للا يا أم محمد.. مع السلامة.

استقر النعش فوق أكتاف حامليه.. وغادر البيت.

بعض النساء قلن:

- الله يرحمها .. روحها متعلقة بالبيت.

في الليل، دخلت عمتي الأودة، وبقلب ميت أخذت ماء الغسل ورشته فيها، ومن يومها حرمت على أمي كنسها.

●●●

عمتي منذ عودتي من عند الجد علي مازالت داخلها..

أمي تقول:

- من صباحية ربنا وهي داخلها.

أنصت إليها وهي تردد:

- داركم وسية وبابها كويس

يا ميت ندامة صبحت بلا ريس

داركم وسية وبابها عالي

يا ميت ندامة صبحت بلا صاري[١٨]

●●●

أمي في حزنها قد تطرح متواليات جنائزية، رغم الصمت المطبق عليها!

دموعها عزيزة عليها، أما إذا فتح قمقمها، فإنها تهطل، لن يجدي وقتها معها الطبطبة، ولا كلمات المواساة، طريق تعرفه جيدًا، وسكوتها يقارب لحظات فطام الصغار، فالطفل يبعد عن الثدي بوضع الصبار على حلمته، إلا أن جوعه قد يدفعه إلى لعقه، أمي كذلك، فهي تظل حائرة بين الحزن المقرون بالدموع،

١٨عدودة من التراث الشعبي

والإمساك عن الدموع وترك الحزن ينهش روحها، إلى أن تنهي ذلك الخلاف، فتسد النبع خوفًا من ضياع نظرها، كما قالوا لها، وضربوا لها مثالاً، ذكروها بأم مجاهد التي داومت على البكاء على ابنها الذي أخذته بلاد الغربة، حتى فتحت عينها ذات يوم فإذا بها قابضة على شبورة من خلفها تتماوج العوالم، وأصبح صوت الناس هو حدودها، تميز به بينهم.

وإن بقي بصيص منه يعينها في معاشها..

أمي تختلف عن عمتي، التي تمتلك قلبًا ميتًا، لولا هذا القلب ما رشت ماء غسل جدتي في غرفتها، مخالفة أهل البلدة الذين يحملون ماء الغسل ويلقون به في الترع والمصارف.

●●●

أمي تحمل بين جوانحها قلبًا قابلاً للتمزق من أول صدمة قد تقابلها.

قالت جدتي عنها:

«أمك عندما تزوجها أبوك، حطت أمام الدار، بعدما أنزلها خالك من فوق الفرس، حملها بين يديه، وصعد بها السلم، وعلى باب الرواق المدهون بالجير والزهرة الزرقاء، حلف برأس جدوده الفخرانية ألا يدخلها إلا بعدما يأخذ مني الحلاوة، مددت

يدي، ونزعت فردة قرط مخرطة بدلايات، أعطيته له، فأنزلها، وسحبتها من يدها بعدما أوقفته على حدود الرواق، قلت لها لأدخل الاطمئنان لقلبها:

- أنا معاي بنية واحدة، من الليلة دي صبحوا اتنين، وأشرت لها إلى الرواق وقلت لها:

- وآدي الرواق اللي عوزاه أمك».

●●●

قالت أمي:

«جدك ابن عم أبي، ولأن الفخراني في العادة لا ينكح إلا فخرانية مثله، أخذ جدك - عندما طاب عود أبيك - يبحث له عن عروسة، وفي زيارة لنا، لمحني، وحط عينه عليّ، ولم يسترح باله إلا عندما وضع يده في يد والدي، وقرأ الفاتحة، في ذلك اليوم، دخلت عليهم في المندرة، أحمل صينية الشاي، ساعتها، احتار دليلي، أيهما العريس؟ هكذا قلت لنفسي، فأنت لو كنت مكاني ما فرقت بين جدك وأبيك، فولة وانقسمت نصفين، فك جدك ارتباكة عيني وأشار إلى أبيك:

- سلمي على عريسك.

وسارت الأمور في طريقها المحتوم، حتى طلعت علينا أمي ذات يوم وأخبرت جدك أنها ستذهب لأرض الخُرِج لتشاهد البيت الذي سوف أتزوج فيه، قال لها والدي إنه ساعد في بناء البيت، إلا أن الكلمات التي قالها لم تبعد تلك الفكرة من تلافيف عقلها، وذهبت وعندما عادت قالت إن البيت مقسم إلا أنه بحيطان عريانة بلا مصيص، ومن دور واحد، وحلفت لأبي بأني لن أدخل عليهم إلا في رواق جديد، بلغ أبي مطلب أمي، وعند عودته، وجدنا وجهه يشبه لون فودة الفرن، وكلما وضعت أمي أمامه الأكل لا يمد إليه يدًا، حتى الماء عاف شربه من زير الدار، كان يقضي وقته كله في الفاخورة، يغادر البيت قبل ظهور تباشير الصباح، ولا يعود إلا عند وصول الشمس لمغطسها، ولما ضاقت أمي بهذا الوضع، ضيقت عليه الخناق ذات ليلة، عند عودته من الفاخورة، زعق فيها وأخبرها أن جدك عبد المنعم قال له إن الكلام أصبح للنساء، ومرت الأيام دون أن يصل رد من جدك، وبدأ الندم يحط في قلب أمي، وخصوصا أن أبي كان يسم بدنها بكلامه كلما دخل أو خرج من الدار.

سمعته مرة يقول لها:

– الواد راجل زي أبوه، وزي ما عبد المنعم ما عرف يبني بيت لحليمة، محمد هيعرف.

ومع طول الأيام، وغياب الرد، كانت دموعي دائمة السقوط، ولم تكن تنقطع إلا بدخول أحد عليَّ، أما إذا أوغل الليل، فأني أكاد أنفطر من البكاء، رأى حالي جدك، فركب حمارته، وخاض طرقات العزب، وتحمل شمس الصيف القداحة، لم يمكث هناك وقتًا طويلاً، فقد عاد وأخبرني أن المداميك في الرواق قاربت على الأنتهاء.

دب الفرح في قلبي، وزغردت روحي، وفرشت علامات الانتصار على وجه أمي، وقالت لأبي:

- ما يجيبها إلا نسوانها.

أوقف أبي فرحتها عندما قال لها:

- حليمة بت أصول باعت حجلها عشان رواق بتك.

ويوم الفرح، جاءت عمتك وخلفها البنات يستقبلنني من أول أرض الخرج، والكلوبات في أيدي الرجال، وأنا خلف خالك على الفرس، بأغنية وحيدة:

خدناها .. خدناها

بالسيف الماضى وأبوها مكنش راضي

وعلشانها بعنا الأراضي

الحلوه اللي كسبناها

خدناها .. خدناها[١٩]

ولما دخلت مع جدتك الرواق، وبعد أن أدخلت جدتك الإطمئنان لقلبي قالت:

- رواقك ده حته مني.

●●●

أمس لم تتخيل أمي أن يحل نهار، ولا يجلجل صوت جدي في الدار، رغم صخبه الدائم وطلباته التي لا نهاية لها، فإنها دائما أمامه تبدي التذمر والتبرم من تلك الطلبات، أما إذا خلت إلى نفسها فإنها تقول:

- ربنا ما يقطع حسك من الدار يا عمي.

وها هي، تمسك بالمقشة التي من سباط النخيل، ودموعها تسح على خديها، وفمها يتمتم:

- ربنا ما يورينا فيك مكروه يا عمي، ويرجعك بالسلامة ويجعل يومنا قبل يومك.

---

١٩ تراث شعبي

حزنها ولد من شعورها بغياب طقوس يومها، فهل يستمر هذا الحزن ؟

من يدري؟

فسبحان مغير الأحوال.

جدران محزونة، تغادرها أشعة الشمس الأرجوانية، ليدوخ بعد انسحابها البيت تحت وطأة العتمة، رغم ذلك فإنه يبدو لي باسمًا يرش عطر بسماته على كل الوجوه التي تعانق الواجهة، وما بقي عليها من رسوم لغة تفصح عن نفسها للموعود.

قلت له ذات يوم:

- عاوز أركب الحصان اللي فوق الحيطة.

ضحك من سذاجتي، وراح يستعيد أمامي تلك الذكريات:

«كان نفسي أروح الحج، وكل عام عندما نودع من ناد عليه نصيبه، أقول اكتبها لنا يا رب، حتى جاء العام الذي قدمت فيه في القرعة، وطلع اسمي، ظلت الدار لمدة شهر والفرحة لا تنقطع منها، بالليل تأتي النساء ويرددن أغاني التحنين، وقبل السفر بأسبوع، وجدت الوقت متاحًا لتغطية حيطان البيت، وعمل الرسومات على واجهته»

كل الرسوم تقشرت، لم يبق إلا الاسم وجملة زار قبر النبي، وفارس مقطوع الرأس، يعتلي ظهر حصان، حاولت كثيرًا إكمال هيئة الفارس، برسم رأسه، لكن كنت أفشل، لا أعرف لماذا ؟ فلم لا أفعلها؟ لكن كيف؟ والتكاسل يسكن جميع أعضائي، والنعاس يثقل عينيّ، فالليلة الفائتة التي قضيتها في تل الفواخير لم أنعم بساعة نوم واحدة، لذلك قررت أن أريح جسدي تحت شجرة ذقن الباشا.

●●●

- قوم يا ولدي.

أفتح عيني، فتقبضان على وجه أمي الباسم، أقول لنفسي.. «عاد»

كأنها لمحت اهتزاز الحروف فوق شفتي، فتهز لي رأسها... وأقوم..

(٧)
حديث الذكريات

بعد أن تركت جدك علي عصر اليوم الفائت، دخلت الجامع، صليت العصر، وبعد أن فرغت من الصلاة، ركنت ظهري للعمود المحمول فوقه السقف، هفت روحي لجدتك، نظرت للساعة المرشوقة على يمين القبلة، عقاربها كانت تشير إلى السابعة، ولأن اللحظات دائما بالنسبة لي هم على القلب والتخلص منها لا يكون إلا في كنف حبيب، ومن لي في مثل تلك الساعات المقلقة، غير جدتك، رميت وراء ظهري الوقت والعتمة الداخلة بشراسة، وتعلقت بتلك الفكرة التي تستوطنني، فاتكأت على عكازي وخرجت.

وطأت قدماي السكة المؤدية للجبانة، وجدت السكون وحده يبلل الطريق، فقد كانت كل المعالم تفقد ملامحها إلا أن الطريق المؤدية إلى المدافن مزروعة في عيني.

●●●

جدك الفخراني الكبير، كان يكرر على سمعنا مقولة:

- عمار البيت من الست.

يقول ذلك، رغم أحاديثه عن المرأة، التي كانت تطير الألباب، وتزرع الشك المقلق داخل العقول التي من طبعها الشك في كل شيء إلا أنه لم ينس أبدًا قول كلمات الإطراء في حقها.

قال لي ذات يوم:

- لولا حليمة مكنش بقي لك بيت.

سمعت هي، فابتسمت، وشمخت برأسها.

وهكذا كان البيت مقرونًا بها، في كل ركن من أركانه بقايا لأنفاسها، متعلقة حتى في الشقوق، وبقايا من عرقها، مازال مخلوطًا بطوب البيت، لم تستطع نيران القمينة محوه، حتى سنينها تحولت إلى عيال ملأت بهم الدار، كل واحد منهم قطعة منها.

ومع مرور الأيام، أصبحت لا تغادر البيت إلاّ يومًا واحدًا وأحيانا بعض ساعات منه، حتى في ذهابها لأهلها، لم تكن تمكث هناك كثيرًا، تجدها جالسة كأنها تقعد على قطع من الجمر، سرعان ما تقول:

- ياللا يا منعم.. نروح بيتنا.

تضحك أمها وتقول:

- خلاص يا شعنونة بقي لك بيت.

ظلت هكذا، حتى جاءت الليلة الموعودة، هببت من نومي بجوارها على أنفاسها المتسارعة، قمت، فتحت كل الأبواب والشبابيك لأدخل الهواء، وعلى صوت فتح الأبواب، قام أهل

الدار جميعًا في نوبة صحيان، وتعلقت العيون بها وهي ملتصقة بالسرير، أشارت إليَّ فاقتربت منها، قالت لي:

- عاوزه أتمشى شويه في الدار.

أوقفتها بيني وبين أبيك، وخرجت من الغرفة التي على يمين المجاز، طافت عيناها تمسدان الدار شبرًا شبرًا، ولسانها لم يقف عن الكلام:

- هنا عند الزير يا محمد، قلعتك عريان ملط، وخدت حفان الطين من تحته ولطخت جسمك الملدوغ بقرص الطنابير.

ونسير حتى بداية السلم فتقول:

- كان كانوني هنا.

وتنظر إليَّ وتقول:

- فاكر يا منعم الدروة والخرط اللي شلته فوق رأسي.

وأخذت تبكي، فخارت قواها، فعدنا بها إلى السرير، ولم تطلع شمس اليوم إلا وهي جسد ساكن لا أنفاس فيه، وفراغ ممتد يعشش فيه الحزن، وبرحيلها احتواني شعور الترمل، وعاف جسدي الرقاد في الأودة، أظل الليل بطوله مفتوح العينين أتطلع في السقف، حتى يشق النور، أجري إلى التل لأنام بجوار الفاخورة،

تحول الليل إلى نهار، والنهار إلى ليل، ظل الحال هكذا إلى أن جاءت عمتك وبيدها صورة لجدتك، يطل وجهها من خلف زجاج شفاف، دقت مسمارًا، وعلقتها، حسيت أنها عادت مرة أخرى إليَّ، صدقني يا ولدي، لو بقيت جدتك «عضم في قفة» كانت حياتي تغيرت.

●●●

وقفت قدام القبر، وبدأت أصرخ فيه:

«حليمة» يا ضمة ليل موجوع..

يا سفينة وغابت.. وما عادت ترجع..

صحيح يا «حليمة» هفضل محروم منك..

مرتاحة هنا يا حليمة..

زمان فاكرة.. لما اخواتي خدوا البيت بعد ما مات الفخراني الكبير. قلتي لي «البيوت في الجبانة»

عارفة لما بتعدي عليَّ النسوان.

وأبص في عيونهم..

صدقيني بلاقيكي ساكنة جواهم.

ولما أفوت، أسمعهم يترحموا عليكي..

من بعدك عايش بروح محنية..

واللي زاد .. ولدك.. عاوزني أهد البيت.

●●●

(٨)
أربعة أيام ما بعد العودة

اليوم الأول

يمر عليه الجد علي، يجلس بجواره، يتحدث وهو ساكن، كأنه احتكر الصمت لوحده، ولما هَمَ بالقيام قال له:

- الصبر جميل يا أبو محمد.

ابتسم وقال له:

- مفيش بعد الصبر إلا القبر.

●●●

شهوة أن يتكلم مع أي أحد تداعب رأسي، ولإخراجه من جلسته التي لا يفعل شيئًا فيها سوى أخذ الدخان من حقه وبيدين عرفت الرعشة إليهما طريقًا، يشبع ورقة البفرة بالدخان ويبرمها، وبهدوء ينفث دخانها.

ضرب عقولنا التعجب، لما رأيناه يفعل ذلك، وخصوصا أن عمتي بيدها أخفت الحق في قعر صندوق جدتي.

بدد أخي الصغير غيوم الدهشة، وأخبرنا أنه لمحه وهو يخرج محتويات الصندوق، وأضاف أنه أعطاه فلوسًا ليشتري باكو دخان، ودفتر بفرة.

●●●

اقتربت منه، نظرت في عينيه، رأيت بهوًا طويلاً، على جانبيه تتراص مقاعد سوداء محلاة بالقطيفة، أعلى كل كرسي صورة لجدتي حليمة بحردتها السوداء، المزينة بالخرز الأزرق، وعقدتها تتدلى فوق جبينها، ولما حاولت تثبيت عينيّ في عينه، أريد الولوج عبر البهو، لمحني، وأرخى جفونه على صورتي التي بدأت الركض داخل سواد عينيه.

●●●

اليوم الثاني

أقلقت حاله عمتي، فوضعت رأسها في رأس أمي، وقالت:

- عين وصابته.

وفور أن هوت الشمس نحو مغطسها، رأيت أم مجاهد تزم فمها بطرحتها، وتسير ولا ترد على نسوة الدرب اللاتي ينادين عليها، من خطواتها، عرفت أن وجهتها دارنا، اجتازت العتبة، وبركت في منتصف المجاز، فكت طرحتها من حول فمها، وطلبت قشًا من أمام سبعة بيوت، أخي الصغير، ألقم ذيل ثوبه بين أسنانه، وفارق عتبة الدار، ولم تمض إلا دقائق وعاد وحجره محشو بالقش، سألته إن كان كلم أحدًا أثناء جمعه، هز رأسه لأعلى وأسفل، فترجمت لها أمي حركته، فقالت أم مجاهد:

- مينفعش.

نظرت أمي إليَّ، وقيدت عينيها عليَّ، حاولت المراوغة والالتفات بعيدًا، شيء ما أعاق عنقي، جعلني أعود إليها، فأذوب خضوعًا تحت وطأة الترجي، الذي ظهر لي لأول مرة مغلفًا بانكسار.

أخرج، فأعانقه وهو جالس وحوله العيال الصغار، صخبهم لا يحركه، كأنه غير موجود!

عدت وفي حجري: علب كبريت فارغة، وبعض قصاصات الورق، وعقصة صوف، ولفة شعر صغيرة، أمسكت أم مجاهد بورقة، حولتها لعروس، وبالإبرة ثقبت عينيها وجسدها، وفمها يغمغم، مردداً أسماء نساء الدرب، واحدة واحدة، وبعدما انتهت قالت:

- عين المرة فيها شرشرة، وعين الراجل فيها مناجل، وعين البت فيها خشت، وعين الولد فيها وتد.

وطلبت أن أحضره، فخرجت إليه، لم يبد أي معارضة، وقام معي كانبساط الحصير فوق أرض مستوية، وسحابة حزن قاتمة تطوف حول وجهه المتجهم.

مدت أم مجاهد ساقيها فأراح رأسه عليهما، رمقت أمي عمتي بظل ابتسامة، أطلت عند زوايا فمها، إلا أن وجه عمتي المنقبض جعلها تقتلها في مهدها، قبل أن تتسع.

أمسكت العجوز بالأشياء التي جمعتها، وبالعروس الورقية المشوّه جسدها، وهمَت بدعك جسده، وهي تردد:

- بسم الله، توكلت على الله، واعتصمت بالله، وسبحان الله.

تطلعت فيه، وجدته مسبل العينين، زام الشفتين، أسلم مقوده لها، كلما سكتت أم مجاهد، لتلتقط أنفاسها، يفض حالة العناق القائمة بين الشفتين وبين الجفون، يجيل بصره، ماسحًا الحيطان، والطاقة المحفورة في الجدار التي يجللها السناج، حتى المشنة القديمة المعلقة في منتصف سقف المجاز، والمتدلية بواسطة ثلاثة حبال قديمة، لم يتركها، وفي كل مرة يفتح فيها عينيه، متهيئًا لمعانقة أحد الأشياء، تظن أمي وعمتي أنه يقصدهما، لكنه إذا ما تجاوزهما، مارًا عليهما مرور الكرام، كانتا تردان نظراتهما إلى الأرض.

حتي العيال، أغراهم صمته، أثناء جلوسه تحت الشجرة، فتكوموا في المجاز، ملتصقين بجدرانه، يشاهدونه وهو لا حول ولا قوة له، بين يديّ أم مجاهد،غير مصدقين أن الذي أمامهم هو الجد عبد المنعم، من كان ينزع فردة حذائه، ويرميهم بها، إذا ما علا صياحهم حوله، ولا يكتفي بذلك، بل يتبعهم صوته، الذي يخرق آذان النسوة:

- ياللا يا ابن العكروته منك ليه.

توغر كلماته صدور الأمهات، فيطاردن أولادهن، حتى يمسكن بهم، وتطلق كل واحدة أصابتها كلماته، لسانها ليرد عليه:

- تعال يا واد من قدام التينة.

في المساء، أثناء ذهابه إلى قعدة العصاري مع الجد علي يعترضن طريقه وكل واحدة تبدي عذرها، عما قالته، فيبش في وجه الواحدة منهن بقوله:

- يا عبيطة أنت زي نوارة بنتي، هو فيه أب يزعل من ضناه.

أنهت أم مجاهد ما تفعله، ثم قرأت الصمدية والمعوذتين، وأحرقت المكونات، وأخذت الرماد وصرته في خرقة قديمة، مع قطعة معدنية من فئة «الربع جنيه» ودفعت بها إليَّ وطالبتني بنثر مكوناتها في طرقات البلدة من وراء ظهري، بشرط ألا ألتفت خلفي ولا أكلم أحدًا.

●●●

اليوم الثالث

اليوم من بدايته حار، والجو مثقل برطوبة خانقة، جعلت الأجساد تسبح في عرق غزير، حتى الطرقات نفضت من المارة، اللهم إلا بعض العجائز، الذين هرعوا محتمين بالجدران والمصاطب القائمة تحت الأشجار، وبعض الأطفال العائدين من الحقول، وأجسادهم تترنح فوق ظهور المطايا المحملة بأعواد الذرة، التي قصفتها ريح الليلة الفائتة.

الحزن يطل واضحًا من محاجر عيون الناس، على تعب الأيام، وضياع غلة الموسم، رغم هذا البلاء، إلا أني سمعت همسًا، وصل إلى سمعي.

في البداية، لم أهتم، وبقيت في طريقي، منحدرًا ناحية الجبانة، أحمل جركن الماء - الذي أوصاني به جدي - لأروي الصبارة الطالعة بجوار المنامة المستقرة داخلها بقايا جدتي.

أثناء العودة، تحوّل الهمس إلى شبه جدل، تتضح لي بعض مفرداته، مما جعلني أرهف السمع من أجل ذلك تعللت تارة بربط الحذاء المحلول، أو شراء علبة كبريت من دكان صغير، إلا أنه بعد العناء والمراوغة، كل ما وصل إليَّ لم يعدو إلا أن يكون نتفًا من هنا وهناك، لا يخرج عن: آثار... كنز... لقية... مدني.

حينما وصلت للبوستة، جلست، بالتحديد بجوار برج الحراسة العالي. رق الحديث، وبانت تفاصيل الحكاية.

يدحرج أحد الجالسين بالكرة:

- الفخراني عارفين ليه مش عاوز يهد البيت؟

يلتقطها الثاني ويقول:

- يمكن يكون تحته لقية.

ويأخذهم الحديث إلى طريق تاريخ البلدة القديم.

يقول أحدهم إن تحت البلدة قسارية طويلة، تتراص على جانبيها الحوانيت، أبوابها من الذهب، والبضاعة التي بداخلها من الذهب أيضا، وأن حارس اللقية في هيئه جمل، يخرج للناس ليلاً، منتظرًا ضربة طوبة أو لسوعة عصا، على أثرها يفتح الباب من تحت أقدام الجمل.

ويضيف آخر:

- مدني مش بيته في أول الدرب اللي فيه بيت الفخراني.

- أيوه.

- ومدني لقي حتة تمثال.

ويستمر الحديث.

إلا أنـي أقتلـع نفسـي مـن المـكان عندمـا لاحـت اللافتـة الزرقـاء المعلقـة علـى البـاب المغلـق وعليهـا كلمـة أثـار.

●●●

اليوم الرابع
ما قاله الجد علي

عندما توجهت إلى عبد المنعم خشيت أن أجده كما تركته، اليأس يكلبش بنفسه، والحزن يحط بخيامه فوق سحنته، ولأني أعرف أن لكل منا موطنًا يحن إليه، وتهفو إليه روحه، وتدوسه عيناه قبل قدميه، عزمت علي أخذه إلى أرض التل.

رأيته ملمومًا على نفسه، وبجواره كوب شاي لم يرتشف منه شيئًا، وفي المجاز تقعد نوارة بجوار أم صلاح، ناديت على الأولى، وطلبت منها إعداد الركوبة، فقامت، لم يبد هو أي اعتراض، حتى السؤال عن الوجهة، لم تناوش شفتيه المطبقتين.

سرنا وسط البيوت المشيدة حديثًا، فكان يدك بقدميه جنب الحمارة، فتمد خطواتها، لم يكف عن ذلك إلا عندما عانقت أرض المدق، وفي منتصفه، شافت الحمارة جحشًا، فحرنت وتسمرت في مكانها، ورفعت شفتيها لأعلي، لم تفلح النخسات ولا الركلات في تحريكها، وعندما لم يجد فائدة، فط من خلفي، وطلب مني النزول، ففعلت، وهوى بالعصا على مؤخرتها، فانطلقت الحمارة إلى الجحش، ووقفت أمامه، وواقعها.

بالعافية اقتلعته من فوق الأرض، وسحبت الحمارة واعتلياها، وسرنا. وعندما امتدت عيناه، تعانقان أعواد الذرة المقصوفة التي سوتها الرياح، مصمص شفتيه وقال:

- الزرع زي البيت، لو مفيش أنفاس تعشش علية تشقق الأرض اللي تحته.

أقلقني وجه الشبه الذي أقامه، فدرت بعيني رأيت دموعًا قريبة في عينه.

●●●

في التل، تركني ودخل البيت، وامتد بصره ليعانق الحيطان المتصلة بلا سقف فاصل، ودخل في نوبة بكاء متصلة، لم تفلح كلماتي، بجعله يكف عما فيه، وعندما لم أجد فائدة، توجهت إلى قيد الحمارة لأفكه، فهرع إليَّ وأمسك يديّ، وأعاد القيد كما كان، وجلسنا، فالتقط عود حطب ناشفًا من فوق الأرض وخط به خطوطًا متشابكة، ورفع وجهه إليَّ وقال:

-إيه رأيك في البيت ده؟

بدون تفكير قلت له:

- خربان.

برزت في عينيه معاني كثيرة متداخلة، تحمل في طياتها اللوم لي، عما قلته، إلا أنه تجاوز كل ذلك وقال:

- مش شايف الشبه في البيت هنا و مصير بيت أرض الخرج.

لم أفهم في البداية، إلا أني مررت بعيني سريعًا، معانقًا ما بقي من البيت، على أثر ذلك سددت فمي، ولملمت هدومي، وقمت وسحبته خلفي وعدت صامتًا.

●●●

(٩)
بقايا الحريق

كان أمر متابعة جدي لنقل أثاث البيت إلى بيت أم مجاهد صعبًا عليه، وزاد الأمر سوءًا في اللحظة التي رأى فيها مكونات غرفته تحمل كلها، جفل وتصلب في مكانه الذي أعدته له أمي بجوار طلمبة رفع المياه، كان يتلفت إلى كل شيء، وبعد أن انتهوا، أوصاهم بأن يجعلوا مكونات غرفته في مكان لوحدها، وقام ومشى ببطء، قصد الغرفة التي فارقتها أشياء جدتي، وأخذ يدور ويلف بداخلها، قابضًا على رائحة، هو وحده يعرفها، وبعد أن نال كفايته، اتجه صوب الطاقة التي يحتفظ بمفتاح قفلها في جزلانته[٢٠]، وبدا أكثر استعدادًا لفتحها، فلا وقت لديه، ففي الغد سيحضر العمال لهدم البيت، فأصبح للوقت ثمنه، هو يدرك هذا، لذلك رنا بعينيه،عانق الباب الخشبي الصغير، وقفله القديم، ولمس الباب، وتراجع على نحو مفاجئ، وكأن انتفاضة ألمت بجسده، فأربكته، فأبعد يده، وانهار تحت الطاقة، وبوعي نصف غائب، شرع في تفقد الجدران العارية، وسرعان ما تماسك وعاد ينظر بكامل يقظته، وسمعته ينطق بكلمة واحدة:

- حاضر.

سألته:

- بتكلم مين يا جد؟

٢٠ حافظة نقود

- جدتك!

وقفت أمامه وأنا لا أملك أي كلمة، بينما هو رد عينيه إلى الجدران، وفي تلك اللحظات كنت أريد أن أسأله عما دار بينه وبين جدتي، إلا أن استناده إلى الجدار ليقوم، وفتحه لباب الطاقة، فعل نفاني لأكون تابعًا لحركة يديه، رأيته ينظر لجوف الطاقة وهو يردد:

- مفيش فايدة.

وبهدوء شديد الوطأة على الروح، أخرج فردة قرط بمخرطة، والكثير من الحرد، ودوسية قديم، وضع الأشياء في جيبه، وترك باب الطاقة مفتوحًا وخرج.

●●●

في الصباح، حملت إليه إفطاره، وضعته على الدكة بجواره، وكانت لحظتها المعاول بدأت تعرف طريقها لسقف الدور الثاني، وهو في مكانه يتابع الأيدي التي تزيل السقف، كان سكونه مختلفًا، كمن ينتظر شيئًا ما، ظهر لي كل شيء في اللحظة التي اقترب منها أول معول لنزع الطوب، هب واقفًا، وركض في اتجاه البيت وهو يصرخ:

- وقف يا ولدي.

وعندما وصل إلى جدار البيت، رفع وجهه وقال للعمال:

- مش عاوز قالب طوب واحد يتكسر.

- صعب يا عم الحاج

- ده طلبي.

- لو عملنا ده مش هيقضينا شهر في الهدد.

- ياخد زي ما ياخد.

وأخذ يتابع نزع الطوب، وفصل ما علق بكل قالب من مواد كانت تلصقه بآخرين، ولما تجمع عدد منها، أمرهم برصها بجوار دكته، فلما فعلوا، نظر إلى رصة الطوب وقال:

- شقاكي يا حليمة

●●●

جاء الجد علي في عصر اليوم الأول لهد البيت، وسأل جدي:

- هتعمل بالطوب إيه؟

- هبني بيه البيت تاني.

- والطوب المصري؟

- لو فيه عرق حليمة هقبل بيه.

●●●

قبل أن تغادره أمي بعد أن وضعت بجواره وجبة العشاء، لتعود لبيت أم مجاهد، أمسك بيدها، فوقفت، ودس يده في جيبه، لتخرج وهي قابضة على فردة القرط، فرد يدها، ووضعه عليها، وهو يقول:

- ده ليك أنت.

اعترضت أمي، فأسكتها بقوله:

- حليمة هي اللي قالت، وأنا قلت لها حاضر.

●●●

عندما انضبط العمال في عملهم وأصبحوا أكثر حرصًا على تعليماته، عاد إلى دكته بجوار طلمبة رفع المياه، دون أن يفك ارتباطه بالأيدي التي تعمل في وتيرة متسارعة، وفي اللحظة التي يشعر فيها بأن همة العمال بدأت تفتر، يطلب من أمي أن تعمل لهم دور شاي، وينادي عليهم، فيقبلون إليه، لينعموا حوله باستراحة، يدخنون السجائر ويرتشفون الشاي، وينصتون بلذة إلى حكاياته التي لا تنتهي عن البيت وعن أرض الخرج.

يروق لي أن أتطلع لوجهه وهو يسرد حكاياته، أجده يخالف عهدي به، فكلماته تجلب الكآبة على وجهه، ورغم هذا يظل لسانه في رحلته، حتى جاء اليوم الذي سأله أحد العمال:

- ما دام أنت يا حاج بتحب البيت، ليه رضيت بهده؟

كانت ضربة أجهزت عليه، فصمت ثم نظر إلى البيت الذي اختفى نصفه، وحاول بكل الطرق دفع خطر الإجابة، فلم يجد إلا أن يمنح نفسه الوقت الكافي ليجيب، قال:

- دي سنة الحياة.

وتلفت إلى وجه السائل، وجده لم يقتنع بما قال، رآه يبتسم ابتسامة محدودة، فشرع في الحديث بعد ما رد وجهه إلى البيت:

- وقت تصل لمثل عمري هتعرف.

- يعني إيه؟

سأله الرجل فأجاب:

- أيامي اللي كانت مفيش حد هيحافظ عليها من بعدي.

ثم سكت، وقال:

- الراجل العاقل لازم يعرف الوقت اللي يقول فيه الوقت مش وقتي.

وقلبَّ عينيه في الفضاء، وقال للعمال:

- يا للا قوموا عاوزين نخلص من الحكاية.

مصطفي البلكي

- قاص وروائي مصري ـ عضو اتحاد الكتاب.
- أسيوط ـ مركز الفتح ـ عرب الأطاولة.
- أخصائي كيميائي بالهيئة العامة للتامين الصحي فرع أسيوط.

❖ الأعمال

- الجمل هام للنبي.. قصص قصيرة.. مركز الحضارة.
- تل الفواخير.. رواية.. الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- رمسيس الثاني البناء الأعظم روايات الهلال.
- بياع الملاح.. . رواية.. .. مركز الحضارة.
- بينوزيم.. الكاهن الأكبر.. . روايات الهلال.
- طوق من مسد رواية سلسلة إبداعات الهيئة العامة لقصور الثقافة .
- الإضراب الأول روايات الهلال التاريخية.
- ساوتى رواية روايات الهلال التاريخية.
- صور مؤجلة للفرجة قصص دار شرقيات.

- دوامات الصمت والتراب قصور الثقافة سلسلة ابداعات الثورة .
- سيرة الناطورى رواية مجموعة النيل العربية.
- أصوات الجرار القديمة قصص دار سما.
- البحث عن السعادة كتاب الهلال للاولاد والبنات.
- نفيسة البيضا رواية دار سما.
- قارئة الأرواح رواية دار سما.
- ممرات الفتنة رواية الهيئة العامة للكتاب.
- جلنارة حمراء رواية دار سما.
- حكايات مبتورة قصص دار أطلس للنشر.

- **الجوائز**

- أفضل رواية من الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- جائزة القصة من جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين الثقافية عام ٢٠٠٦، وكذلك جائزة الرواية
- جائزة نادي القصة في الرواية .
- جائزة القصة من جمعية الرواد بأسيوط .

- جائزة إحسان عبدا لقدوس في الرواية .
- جائـزة أدب الطفـل مـن جمعيـة أصدقـاء أحمـد بهـاء الديـن ٢٠٠٨.
- جائزة القصير في الإبداع القصصي ٢٠١٠.
- جائزة اتحاد الكتاب فى الرواية ٢٠١٠.
- جائزة ساقية الصاوى فى الرواية ٢٠١٢.
- جائزة الروائي الكبير بهاء طاهر في الرواية ٢٠١٧.

●●●

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر